جمال البنا

موقفنا من العلمانية القومية الاشتراكية

فهرست

الفصل الثالث
الموقف من الاشتراكية

عناصر الأختلاف:

- **أولاً: رفض فكرة الألوهية والخلق**
- **ثانيا: رفض سحق شخصية الفرد**
- **ثالثا: رفض الدولة الاشتراكية اللينينية**

عوامل الاتفاق:

- **العناية بالعنصر المادى**
- **التخطيط الاقتصادى**

خاتمة:

- **البديل.**

كنت قد كتبت عن موضوعات الاشتراكية والقومية والعلمانية فى بعض كتبى مثل "الدعوات الإسلامية المعاصرة ما لها وما عليها" و"البرنامج الإسلامى" و"الإسلام والحرية والعلمانية" ثم رأيت أن من الخير أن أجمعها فى كتاب حتى يسهل على القارئ الذى يُعنى بها بالذات الإلمام بها بدلاً من البحث عنها فى أشتات الكتب التى قد لا تكون متوفرة عنده بالكامل خاصة أن بعضها قد مضى عليه عشرون عاماً. وانتهزت الفرصة لأنقحها بالحذف أو التعديل طبقاً لآخر ما انتهى إليه اجتهادى كما أضفت زيادات عديدة ووضعت فصلاً أخيراً بعنوان "البديل".

وقد ظن بعض الناس أن الاشتراكية قد فقدت أهميتها بعد انهيار الاتحاد السوفيتى الذى كان يرفع لواءها واستسلامه لغريمته اللدود أمريكا. ولكن الحقيقة أن هزيمة الاتحاد السوفيتى لا تعنى هزيمة الاشتراكية وإنما تعنى فشل التجربة التى تبناها. والتى كانت مخالفة لروح الاشتراكية ولسياسة الاشتراكية طوال الفترة التى أعقبت موت ماركس حتى الحرب العالمية الأولى. وتبنتها كل الأحزاب الاشتراكية التى كانت تحمل اسم "الحزب الاشتراكى الديمقراطى" حتى قام لينين ببلشفة الاشتراكية وقضى على "الديمقراطية"ـ سواء فى تسمية الحزب أو فى حقيقة وجودها فى المجتمع الاشتراكى وكان هذا هو السبب الذى أدى إلى انهيار الاتحاد السوفيتى وقد عادت الأحزاب الاشتراكية تحمل مرة أخرى الديمقراطية فى اسمها وكان هذا عودة إلى التقليد الاشتراكى الأصيل. كما أن انفراد الرأسمالية بما غرس فيها من استغلال يمكن أن يعيد إلى الوجود سوءاتها التى دفعت أول مرة إلى ظهور الاشتراكية.

ويعلمنا التاريخ أن زوال عهد لا يعنى اندثاره لأن أثاره تبقى ويحكم الموتى من قبورهم، وتؤثر شعوبهم أن يتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم، ولو كان استعباداً، فكما قال شوقى:

من يترك النير يعش برهة　　فى أثر النير وفى ندبه

والذين يندبون الاشتراكية ويتباكون عليها فى الشرق أكثر مما هم فى الغرب – وفى روسيا نفسها.

وفى جميع الحالات، فإن الدور الذى قامت به الاشتراكية فى تاريخ الفكر السياسى الحديث، بل وفى التجارب السياسية القائمة مما لا يمكن إغفاله وقد يسمح التطور لها بجولة أخرى، لأن وجودها أمر "جدلى" بالنسبة للرأسمالية فى المجتمعات الأوربية.

وهذا ما يمكن أن يقال عن القومية التى ظهرت على الساحة فى إحدى لحظات الحرج، وكرد فعل دون أن تكون فعلاً أصيلاً، ولكنها رزقت عوامل مواتية جعلتها تشغل الساحة وتظفر فى بعض الحالات بالصدارة حتى بعد تهاوى المشروع الناصرى بعد هزيمة 1967.

وقضية "العلمانية" لا تقل عن هذين أهمية، خاصة عندما يتعلق الأمر بالدين، لما سبق إلى الأذهان من التعارض ما بين العلمانية والدين وهو تعارض إذا جاز بالنسبة للمسيحية، فقد لا يؤخذ على علاته بالنسبة للإسلام الذى يتفق – فيما ذهبنا إليه – مع العلمانية فى جوانب وإن اختلف معها فى جوانب أخرى، ولكن تظل للعلمانية أهمية حتى لا يطغى التدين الأخروى على التدين الدنيوى.

وكل ما جاء فى هذه الرسالة يعبر عن موقف دعـوة الإحيـاء الإسـلامى إزاءها – أى إزاء الاشتراكية والقومية والعلمانية.

ونحن فى عرضــنا لهــذه الموضــوعات وتحديد موقفنا منها نلــتزم الأمانة فى العرض، وذكر الحسنات والسيئات، نقاط القوة والضعف ولا نغمط واحـدة منها حقهـا، وإننا فى تقييمنا ننطلق من قاعــدة هى الإيمــان بقيم الحريــة، والعدالــة، والخــير، والمعرفة والتعايش مع ضرورات العصـر، وهى فيما نـرى قيم الإسـلام، وجـوهر دعـوة الإحياء...

وقد تمنى بعض الذين يتابعون كتاباتنا لو لطفنا لهجة الحديث أو ابتعدنا عن نقاط الخلاف وقنعنا بنقاط الائتلاف حـتى لا نكتسب عـداوة المخـالفين، ومع تقـديرنا لما فى هــذه الملاحظة من وجاهة وأهمية إلا أننا نــؤثر أن نقــول الحقيقة كاملة وأن نعــرض الأبعــاد كلها وأن نصــدع بكلمة الحق لا كلمة المهادنة أو التســوية. فهــذا فكر وليس سياسة ودور المفكر هو أن يقــول الحقيقة كاملة وبلا هــوادة وقد تحــدث القــرآن والإنجيل عن المخالفين بعبارات قاسـية صـريحة ونـددا بنـواحى الخطأ والانحـراف، ولا يجوز مطلقاً فى مرحلة وضع النظرية أى حيف عليها، أو انتقاص منها إتقاءً لعداوات أو كسبا لصداقات. فإن هذا قد يحدث عندما تدخل النظرية فى خضم السياسات، ويكـون هذا على مسئولية وباسم القائمين عليهـا، وليس باسم النظرية فى حد ذاتهـا، أو باسم واضعها الأصلى.

جمال البنا

القاهرة فى: ربيع ثانى 1424 / يونيو 2003

الفصل الأول

الموقف من العلمانية [*]

تعود الفكـرة الضـبابية أو الضـالة عن الإسـلام والعلمانية إلى لَبْس بالنسبة للمرجعية الإسـلامية يصـطحب به لَبْس آخر ينشأ عن الحكم على الإسلام بما حدث للمسيحية.

اللَبْس الخاص بالمرجعية الإسلامية:

نشأ هـذا اللبس من اعتبـار الأحكـام الـتى أسسـها الفقهـاء والأئمة منذ ظهـور المـذاهب فى القـرن الثـالث الهجـرى ومن ظهر بعـدهم من المجـددين مثل ابن تيمية وابن حزم فى القـرن الثـامن والشـوكانى فى القـرن الحـادى عشر ومحمد عبـده فى القرن الرابع عشر الهجرى حتى زعمـاء الـدعوات الإسـلامية المعاصـرة (المـودودى – حسن البنا – سـيد قطب) هى الآراء الـتى تمثل وجهة نظر الإسـلام فى العلمانية وفى غيرها.

وهذا لبس مفهوم، فأساتذة الجامعات الدينية يرون فى هؤلاء أساتذتهم العظـام كما أن أساتذة الجامعات المدنية والمستشرقين يـرون فى هـؤلاء الممثلين الطبيعـيين للفكر الإسـلامى. ومن هنا اتفق الجميع على اعتبـارهم المرجعية المعتمـدة والمقـررة للتعبير عن الإسلام.

والحقيقة أن هؤلاء جميعاً حتى المتقدمين منهم كأئمة المـذاهب الأربعة خضـعوا لمناخ سياسى واجتماعى وثقافى معين وتأثروا تأثراً عميقاً ببيئاتهم وسمح تأخر تـدوين السُنة لمائة عام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بإقحام أعـداد هائلة – بمئـات الألوف – من الأحاديث المكذوبـة، كما أن أسـلوب القـرآن القـائم على المجـاز الفـنى والنظم الموسـيقى واللمسة السـيكولوجية أفسح المجـال للتأويل والتفسـير ودخـول إسرائيليات عديـدة فى كتب التفسـير المعتمـدة وبقـدر ما كـان الـزمن يبعد عن العهد النبوى ويوغل فى ظلمات الحكم الفردى وسيادة الجهالة وهيمنة الفرس والـترك على الخلافة وتمزق الحكم الإسلامى... بقدر ما كانت هـذه المـؤثرات تنعكس على كتابـات وأحكام الفقهاء، لأنه من العسير جداً على الكاتب أن يخرج عن أطر عصـره ومسـتوى فهم هذا العصـر، وليس أدل على هـذا من أنه عنـدما تكـاثفت الظلمـات قـرر الفقهـاء أنفسهم إغلاق باب الاجتهـاد الـذى يصـور العجز عن إعمـال العقل والتسـليم بما ذهب إليه الأئمة والأسلاف، أى الإفلاس الفكرى كلية.

وبصرف النظر عما فى هذا الكلام من حقيقة، فإن الأمر الذى لا نزاع فيه والذى يـرقى إلى مسـتوى البدائه أن ما يمثل الإسـلام حقا هو كتـاب الإسـلام الأصـيل – أى القرآن – وكان المفروض عندما يراد معرفة حكم الإسلام فى أمر أن يرجع إلى القرآن نفسه، وليس إلى تفسيرات المفسرين له الـذين خضـعوا للمـؤثرات الـتى أشـرنا إليها وحافت على النص القرآنى، كما كان يجب أن تضبط السُنة – الـتى تسـلل إليها الوضع

---

[*] إذا كانت العلمانية هى توثين الإنسان، وليس عبادة الله والاعتراف بالحياة الدنيا وجحود الحياة الآخرة. فلا جدال فى مخالفتها بل ومناقضتها للإسلام. ولكننا لا نفهم العلمانية بهذا المعنى. ولكن أنها الفصل بين الدولة والدين. بمعنى أن الدولة لا تمارس مهاماً دينية ولا تعنى بمناشط دينية وإنما تدع الدين للناس تؤمن به كما تشاء، بل لعل الدولة العلمانية قد تناصر الكنائس. دون أن تتدخل فى عمل الكنائس أو تسمح للكنائس بالتدخل فى عملها والشواهد عديدة فحرية الاعتقاد مقررة للجميع والكنائس قائمة فى الدول العلمانية بل وهناك أحزاب مسيحية. بهذا المعنى وحده نفهم العلمانية ويدور عليها الحديث فى هذا الفصل.

بضوابط حتى لا يسمح للأحاديث الموضوعة أو المحرفة بإصدار أحكام مجافية أو حتى مخالفة للأصول التى أرساها القرآن.

ولكن لما كان ذلك أمراً صعبا، وفى الوقت نفسه يجاوز الأطر السلفية والأحكام التى وضعها بالفعل أئمة المذاهب، فقد آثر الكتاب الإسلاميون وتبعهم فى هذا المستشرقون – أن يأخذوا أحكامهم من الأحكام الفقهية التى وضعها الفقهاء منذ ألف عام... واعتبروها حكم الإسلام.

ومن هنا نشأ اللبس الأول وأخذ ما يقال أو يكتب عن حكم الإسلام على العلمانية من الفقهاء حتى لو كان يجافى أو يخالف حكم القرآن للعوامل التى تحكمت فى الفقهاء وأشرنا إليها آنفا.

لَبْس الحكم على الإسلام بما حدث للمسيحية:

يعود اللبس الثانى بالنسبة لموقف الإسلام من العلمانية إلى تطبيق الكتاب الأوربيين أحكامهم عن المسيحية على الإسلام، فى حين أن هناك فرقا جذريا بين الإسلام والمسيحية، أو على الأقل بين الإسلام والكنيسة المسيحية.

إن أى دارس للحضارة الأوربية يعلم أن جذورها الحقيقية يونانية – رومانية، والحضارة اليونانية والرومانية حضارة وثنية – لا بمعنى أنها تعبد الأصنام والأوثان – ولكن بمعنى أنها تتجاهل فكرة الله بالتصور الذى نجده فى الأديان السماوية وترفض بوجه خاص ما يرتبط بها من وجود عالم آخر للحساب والثواب[1]. فهذه الفكرة لم تكن فحسب مستبعدة من الإيمان الإغريقى والرومانى، بل إنها فى الحقيقة معارضة تماماً للأساس الذى قامت عليه هاتان الحضارتان، ذلك أنهما عندما استبعدا الله، ألها الإنسان، وعبر عن ذلك أول حكماء اليونان "الإنسان مقياس الأشياء"، وهو المعنى الذى كرره كانت وهيجل بتعبيرات أخرى مثل "الإنسان غاية فى ذاته" فالحضارة الأوربية هى السليلة الشرعية لليونان والرومان، وعندما أرادوا النهضة أخذت هذه النهضة شكل إحياء **renaissnce** الحضارة اليونانية/ الرومانية.

وكما تكَّون "الإنسان" المؤله فى أثينا، وفى روما، فإنه نشأ فى صورة الفرد المحَررَ – فى محضن "البور" أو "البورج" فى القرن الثانى عشر والثالث عشر فى بريطانيا وفرنسا، وهذا الفرد هو الذى حملت الحضارة الأوربية المعاصرة شارته التى تقوم على الحرية لا الإيمان، والتعاقد لا الالتزام، والفرد وليس الجماعة، وهكذا ظهرت البورجوازية بواجهتيها السياسية وهى الديمقراطية، والاقتصادية وهى الرأسمالية. ومما لا يخلو من دلالة أننا لا نجد فى التاريخ الأوربى – من اليونان حتى الرومان ذكرا للرسل والأنبياء، فقد حل الفلاسفة والأدباء والمفكرون محلهم، ووضعوا "الضمير" وغرسوا الوجدان بما أبدعوه من فنون.

وفى جميع الحالات من أقدم العصور – اليونان – حتى نهاية التاريخ، على ما ذهب إليه فوكوياما، كان الاستمتاع والربح والقوة والحرية والسيطرة هى الأهداف العظمى لهذه الحضارة، وكانت القيم الحاكمة فيها هى الحرية والقوة والنظام (أو القانون) ولم تأبه الحضارة الأوربية بقيم كالرحمة والخير والصفح والعدل.

فى هذه الحضارة تكون الدنيوية أو العلمانية جزءاً لا يتجزأ منها، يسرى فيها مسرى الدم فى العروق، ولا يتصور شىء آخر خلافها.

---

[1] **(1) ولهذا فإن تناقض الوثنية اليونانية/ الرومانية لا يقتصر على المسيحية لأنها تتناقض بشكل أكبر مع الديانة المصرية القديمة، والإسلام ففى هذين نجد أعلى تركيز لفكرة "اليوم الآخر".**

ولكن هـذا الشـىء الآخر ظهر مع دخـول المسـيحية بمثل وقيم تختلف عن قيم ومثل الحضارة الأوربية، ومع أنها كدين لا تستهدف السيطرة أو الحكم لأن هذا يخـالف طبيعتها، وقد قال المسيح "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله" ونفى أن تكـون مملكته فى هـذه الـدنيا، فـإن الـذى يحـدث هو أنه ما إن تظهر الأديـان حـتى تظهر فى مرحلة لاحقه المؤسسة الدينية المحتكـرة المنتفعـة، وحـتى يـبرز الكهنة الـذين يوجـدون فى معبد، والسدنة الذين يحرسون كل هيكل، وجبـاة العشـور الـذين يفيـدون من العقيـدة التى أصبحت مذهبا والإيمان الذى تجمد فى كنيسة.

وللمؤسسة الدينية طبيعة تختلف تمامـاً – أو حـتى تتنـافى – مع طبيعة الأديـان، فطبيعة المؤسسة الدينية ذاتية وطبيعة الأديان موضـوعية، وتتعـرض المؤسسة الدينية لعملية من التداخل السيكولوجى توحد بين الدعوة وأشخاص الدعاة بالمؤسسة والذين يتحدثون باسم الدين، وبعد فترة يصبحون هم بأشخاصهم محل الدعوة، وبهذا يطرحون على الدعوة كل ما فى النفس البشرية من طموح وقصور.

ويتكرر هذا بالكامل فى المؤسسة السياسية ذات الطابع الأيدلوجى الشـمولى – شيوعية، أو فاشية – حيث يقوم الحزب بدور الكنيسـة، ويصـبح قادته أسـاقفة الكنيسة الذين يحتكرون وحدهم تفسير النظرية.

وبالنسبة للمسيحية بالذات، فإن عوامل معينة اعتبرت الكنيسة الممثلة الوحيدة والمشـروعة للديانـة، كما أن ظـروف أوربا فى القـرون الوسـطى جعلت الكنيسة هى السـلطة المركزية الوحيـدة وسط أرخبيل الـدويلات الـتى كـانت تغطى سـطح أوربـا، وتقسـمها إلى مئـات الـدويلات يحكم كل دويلة دوق، أو كـونت أو لـورد الخ... وكـانت قواعد الطوائف الحرفية وطوائف التجار تفصل ما بين المدن بعضها بعضـا، فضـلاً عن العوامل الجغرافية من جبال أو أنهار قبل ظهور وسـائل النقل والاتصـال الحديثة الخ... فى هـذه الملابسـات كـانت الكنيسة الكاثوليكية هى القـوة الوحيـدة ذات السـلطة المركزية والرئاسة الواحـدة، وكـان الأسـاقفة ورسل البابا هم الـذين يجوبـون أوربا ويخترقون حواجزها، فضلاً عن أن بعضهم كان يحكم بالفعل دويلات منها وفى الـداخل كـان الجمهـور الأوربى ينظر إلى الكنيسة باعتبارها "أُمنا الكنيسـة" الـتى يعمد فيها أطفاله ويعقد فيها زيجاته ويدفن فيهـا أمواتـه. ويعيشـون حيـاتهم فى أحضـانها وكـانت الكنيسة هى التى تتولى التقسيم الإدارى فى المدن والقرى إلى "ابرشيات"، وتسـجل فى دفاترها الولادات والزيجات والوفيات.

وقد عملت الكنيسة على توحيد أوروبا فى مناسـبتين الأولى، عنـدما تـوجت شارلمان – فى سنة 800 – ووكلت إليه توحيد الولايات والمقاطعات الخ... فقام بهذا، والثانية، عنـدما أرادت أن توقف الحـروب داخل أوروبا ما بين الأمـراء وأن توجهها إلى الشرق، فـأعلن البابا أوربـان الثـانى فى عـام 1095 الحـروب الصـليبية الـتى وحـدت سيوف أوربا ووجهتها نحو الإسلام[(2)].

وحـاول بعض الملـوك الأقويـاء التخلص من وصـاية الكنيسـة، فتصـدت لهم وأخضعتهم، وقد يصـور ذلك ما حـدث للإمـبراطور الجرمـانى هـنرى الرابع الـذى أعلن البابا جريجـورى السـابع حرمانه فاضـطر سـنة 1077 لأن يـذهب إلى البابا فى قرية كانوسا حيث كان هنـاك، وأن يقف على بابه ثلاثة أيـام قبل أن يسـمح له بـالمثول بين يديه ويظفر بالصفح عنه.

وحفلت المدة من 1077 حتى منتصف القرن السـادس عشر بالمنازعـات حـتى استطاع الملك هنرى الثامن ملك إنجلترا أن يتحرر من وصاية الكنيسة الكاثوليكية وأن

---

[2] **(2) وهو الأمر الذى دعا إليه المفكر الألمانى ليبنتز بعد ذلك بخمسة قرون.**

ينصب نفسه "حاميا للعقيدة". كما ظهر مارتن لوثر وخلص ألمانيا من وصـاية الكاثوليك وفى النهاية انحسم الصراع لمصلحة الملوك والقوميات انفجار الثورة الفرنسية.

وكان السبب الأكبر فى هزيمة الكنيسة أنها قاومت الحريات: حرية العقيـدة عن طريق إقامة محـاكم التفـتيش الرهيبة وحرية الفكر بتقييد طبع الكتب وتحـريم تـداول كل الكتابـــات الـــتى تخـــالف وجهة نظر كنيسة روما بمقتضى ما يســمونه الجـــدول **INDEX LIBRORUM PROHIBTORUM** الذى تعود فكرته وقراره الأول إلى مجمع نقيه سنة 325 عندما حرم كتـاب الأسـقف أريـوس المعنـون **THALIA** ويعـود تـاريخ ظهـوره الفعلى مع تطبيقه على ما سـبق إلى مجمع ترينـتى سـنة 1564 وهـذا الجدول يصدره البابا ويعاد طبعه كل عام، ويتضمن أسماء الكتب الـتى تحـرم الكنيسة طباعتها وتداولها، ويدخل فيها بالإضـافة إلى نصـوص التـوراة والأناجيل غـير المعتمـدة لديها كتب كثـيرة منها كتب لجـاليلو، وهـوبز، وديكـارت، وجـان جـاك روسـو، وفولتـير، ومونتسكيو، وكانت، وجوته، وسبينوزا، وجون ستيورات ميل، وفيكتور هوجو، وفورييـه، ومـاركس، وبرجســون الخ... وتمســكت الكنيسة بحماقة بفكـرة ثبـات الأرض وأنها لا تدور، واعتبرتها قضية مقدسة ثلاثاً، وأنها أهم من أية قضـية تتعلق بالعقيـدة المسـيحية ووقفت الكنيسة دائما فى صف النبلاء ضد الجماهير، وكان للأساقفة تمثيل كبير خـاص بهم فى مجلس اللــوردات وقــاوموا أولى الانتفاضــات الجماهيرية فى بريطانيا الــتى حملت اسم ثورة الفلاحين فى القرن الرابع عشـر. كما قـاومت الكنيسة البروتسـتنتية وعلى رأسها وقتئذ مارتن لوثر نفسه قومة الفلاحين الألمـان الـتى عـرفت باسم ثـورة الفلاحين فى القرن السادس عشر، ودعا مارتن لوثر النبلاء إلى سحقها بكل قوة.

ويوضح اسـتعراض الوقـائع السـابقة أن <u>نشـاط الكنيسة وليس المسـيحية</u> كـان العامل الحاسم الذى جعل الحكم ثيولوجيا – أما المسيحية نفسها فهى بعيدة تماما عن محور الصراع وغايته وقولة المسيح "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله" معروفـة، كما يدل الدليل السلبى على النتيجة نفسـها، أعـنى أن انتفـاء وجـود المؤسسة الدينية – أو إبعادها هو الـذى سـمح بوجـود العلمانية فى أوربا فالكنيسة هى العامل الرئيسى سـلبا وإيجابا وليس المسيحية الـتى لا تـزال موجـودة فى أوربا ويعتبرونها من الأصـول الـتى قامت عليها الحضارة الأوربية جنبا إلى جنب التراث الإغريقى والرومانى.

وكـان لابد أن ينشأ صـراع ما بين المجتمع الأوربى الـذى يعـود بجـذوره إلى أثينا وروما والسـلطة الكنسـية الـتى جاءتها من الشـرق، وظل المجتمع الأوربى ممثلا فى مفكريه يصارع الكنيسة وقيمها حتى الثـورة الفرنسـية 1789 الـتى كـانت أولى بـوادر انتصار هذا المجتمع على الكنيسة.

وشيئاً فشيئاً استرد المجتمع الأوربى من الكنيسة السـلطات والصـلاحيات الـتى كـــانت تمارســها ولم يبق لها من دور إلا تعميد الأطفــال أو تــزويج الشــباب أو دفن المـوتى، وعنـدما قنعت الكنيسة بـذلك لم يضن عليها المجتمع الأوربى الـذى اسـترد "دنيويتــه" بجــزء من الكعكة – فأفسح لها جانبا بين المؤسســات الأخــرى، وفى بعض الــدول – كألمانيا – تقــوم الســلطات بخصم نســبة مئوية للعمل الخــيرى من الأجــور وتحولها للكنيسة. وبهذه الطريقة استعادت أوربا الدنيوية الـتى هى فى أصل حضـارتها واحتفظت فى الـــــــوقت نفسه بالكنيسة – كما كــــــــانت روما تحتفظ بنُصب للإله المجهـول[3]. ولو تصـورنا مسـيحية بـدون كنيسة لكـان من المحتمل أن لا يقـوم هـذا الصـراع الطويل الـذى اسـتهدف اسـترجاع الدنيوية لأن المسـيحية وإن كـانت قيمها تختلف عن قيم الدنيوية الأوربية فلم يكن منها ضـير ما ظلت تقـوم بـدعوتها "بالحكمة والموعظة الحسنة" وإعطاء ما لقيصر لقيصر... ولكن الكنيسة – وليست المسـيحية –

[3] **(3) كان من المألوف فى بعض المعابد الرومانية أن يقام نُصب يكتب عليه "الآلة المجهول" ولعل هذا كان فى أصل فكرة "الجندى المجهول" فيما بعد وما أشبه.**

هى التى استهدفت السلطة، وهى التى قـاومت العلمـاء والمفكـرين وأقـامت محـاكم التفتيش وفرضت رقابة قاسية على إصدار الكتاب الخ...

ومع أن أوروبا قد صفت حسابها مع الحكم الثيولوجى بقيام الثورة الفرنسية وما أعقبها من أحداث أبعدت الكنيسة عن المشاركة فى الحكم أو الهيمنة على الفكر فإننا نجد للكنيسة فى المجتمعـات الشـرقية نفـوذاً كبـيراً يجعلها إلى حد ما مسـئولة عن مصالح المسيحيين ومشـاركتهم فى الحكم ومكـانتهم فى المجتمـع، وهو وضع نشأ عن كـونهم بالدرجة الأولى أقليه فى المجتمع الإسـلامى. مما قد يـبرر ذلـك، ولكنه يوجد حساسيات، بل ومشاكل لأنه يعطى للكنيسة سـلطة على المجـالات الدنيوية للمنتمين إليها والمفــروض أن تــدع كل هــذه المجــالات للسـلطات المدنية والنظم السياســية القائمة، ويعد الخروج من هذا الإطار نوعاً من الاحتفاظ ببعض سلطات ونفوذ الكنيسة عندما كانت هى التى تحكم المجتمع.

* * *

إذا خلصـنا من اللبس الأول بحيث يكـون مرجعنا هو القـرآن، وليس المقررات الفقهيـة، وإذا سـلمنا بـأن الأحكـام الـتى تصـدر على الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن أن تنطبق على الإسلام ببساطة لعدم وجود مثل هذه الكنيسة فإن الجو يتهيأ لمعالجة قضية العلمانية والإسلام.

أول ما يلفت الانتباه أن الإسلام على نقيض الأديان السـابقة لم يجعل دليلاً على مصداقيته معجزة خارقة للعادة، مخالفة للنواميس، كإحيـاء المـوتى أو عـدم الاحـتراق بالنـار أو تحويل عصا موسى إلى حية تسـعى الخ... إن معجزته هى "كتـاب" ووسـيلته إلى كسب الإيمـان هى تلاوة هـذا الكتـاب، ورفض القـرآن طلب المشـركين معجـزة ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا **(90)** أَوْ تَكُونَ لَـكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيـلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا **(91)** أَوْ تُسْـقِطَ السَّـمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَـفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً **(92)** أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَـرْقَى فِي السَّـمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلا بَشَرًا رَسُولاً﴾. {93 الإسراء}.. فهذه الآيات ليست فحسب ترفض ما طلبوه من معجزات ولكنها أيضـاً تقرر ببساطة رائعة بشرية الرسول "هل كنت إلا بشراً رسولاً".

ويصور القرآن نفسية الناس وقتئذ بقوله ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَـامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْـهِ مَلَـكٌ فَيَكُـونَ مَعَـهُ نَـذِيرًا **(7)** أَوْ يُلْقَى إِلَيْـهِ كَـنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُورًا﴾. {8 الفرقـان}.. ومرة أخرى ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَـذِيرٌ مُبِينٌ **(50)** أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَرَحْمَـةً وَذِكْـرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. {51 العنكبوت}.. فانظر كيف عزل القرآن عالم المعجزات عن عـالم الدنيا ووكل الأول إلى الله وخص الرسول بأنه "نذير مبين" وكيف جابه المشركين بأن فى الكتاب ما يكفى.

ركائز علمانية الإسلام

أولاً: طبيعة الإسلام:

ظهر الإسـلام فى شـبة جزيـرة العـرب حيث تنبسط الصـحراء كـالبحر وتنطلق الرياح كالعواصف. وبين أقوام لم يكدحوا بأيديهم فى الأرض ولم يحملوا على ظهورهم الحجر، مما شغل حياة الناس فى العهود القديمة، ولم تذل رقابهم لملك أو إمــبراطور ولم يخضـعوا لمــران النظم وضـبطها وربطها كـانوا أحـراراً يعيشـون عيشة البـداوة وتحكمهم الفطرة أو العرف ويتحملون الحر اللافح نهاراً والـبرد القـارص ليلاً ويعبـدون

آلهة من صنعهم فما كـانت تملك تحريمـاً أو تحليلاً أو تفـرض قداسة أو "تـابو" من أى نوع، ولم يكن لديهم ميثلوجيا كالميثلوجيا اليونانيـة، أو الميثلوجيا العبرية (وهى التـوراة زائداً ما أضيف إليه من أساطير وروايات) تثقل كاهلهم وتعقد أفهامهم..

أخذ الإسلام شيئاً من هذه الطبيعة فكان حـراً، بسـيطاً، لا تعقيد فيـه، ولا شـىء يخـالف الفطـرة أو الطبيعـة، ونفت منه الاحتكـار والإقصـاء اللـذين يخالفـان الطبيعة الطليقة الحرة للصحراء. وعندما حكمت الضـرورة بـأن "يصـطفى" الله تعـالى أنبيـاءه فإن هذا تم على أساس أنهم نقلة الدعوة وليس أكثر وليس لهم من الأمر شـىء، كما لم يسـتثن أو يقصى عن دعوته فئة وإنما وجهها لكل بـنى آدم وللنـاس كافـة. وهـذه الصفة – انتفاء الاحتكار أو الإقصاء – من أبرز خصائص الإسلام.

وقد تصور طبيعة الإسـلام بطريقة رمزية المسـجد فـالأرض كلها مسـجد طهـور تجوز الصلاة فيه، ومنظر القروى الذى يصلى على شاطئ النيل أو البدوى الذى يصلى وسط الصحراء من المشاهد المألوفة والمسجد نفسه ليس إلا أرضاً مسـورة ولا يوجد بالمسجد أى نوع من الأثاث، ولا صلبان ولا على جدرانه صـور، وليس هنـاك مـذبح، ولا قمـاقم، ولا تماثيـل، ولا أناشـيد ولا تقدمة ولا بخـور ولا صـلبان فى اليد وتيجـان على الـــرأس إلى آخر ما تحفل به الكنيسة المســيحية. ويمكن لأى واحد إقامة المســجد ويمكن لأى واحد يحفظ القرآن أن يكون إماما فى هـذا المسـجد والصـلاة نفسـها رغم أن فيها سجود وركـوع، ولكنها لا تتطلب رسـوماً أو طقوساً خاصة أولها أسـرار خاصة ويمكن لكل واحد أن يؤديها بنفسه فى بيتــه، وحــتى صــلاة الجمعة فإنها لا تزيد على الصــلوات العادية إلا بالخطبة الــتى يمكن لكل من يلم بالمعرفة الإســلامية أن يلقيها دون أن يلبس زيا معينا أو يشــترط صــفة كهنوتية بحيث لا يكــون هنــاك فــارق بين "المدنى" و"الـدينى" إن بسـاطة المسـجد الإسـلامى جـزء من طبيعته كمكـان أريد به الصلاة وأن يتجرد من أى شىء يشغل المصلى أو يلفته عن صلاته.

وهناك مبدأ كأنما اشتق من هواء الصحراء وريحها المنطلقة، هو **مبـدأ الـبراءة الأصلية** وأن الأصل فى الأشياء الحل، ولا يحرم شىء مالم يـأت بتحريمه نص جلى لا يقبل التأويل من القـرآن، وهـذا المبـدأ يتفق مع مبـدأ إسـلامى آخر مشـتق من طبيعة الإســلام أيضــاً هو إن **الإســلام دين الفطــرة،** وأن كل طفل يولد مســلما حــتى يمجسانه أو يهودانه أو ينصـرانه أبـواه. والفطـرة، والبداهـة، والحـدس كلها متقاربـات، وكلها تهــدى إلى درجة من العقلانية قد تكــون بســيطة أو ســاذجة، ولكنها بعيــدة عن الإنحراف ويغلب أن تكون صائبة، ولهذا فإن الإسلام يأتمن القلب البشـرى ويـرى الأثم هو ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس وأن الأمانة نزلت فى جـذر قلـوب الرجـال ووجه الرسـول أحد صـحابته "اسـتفت قلبك وإن أفتـوك وإن أفتـوك". كما إنه يتقبل الجسـد، وأن المـؤمن لا ينجس أبـداً، وليست أسـاليب الطهـارة إلا أداة لإثـارة الوعى بالنظافة والأخذ بها، وهو يتقبل الطبيعة البشرية ولا يرى حرجاً فى الإقبال على الطيبات من الرزق من طعام أو شـراب. ﴿قُـلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا خَالِصَـةً يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ كَـذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. {32 الأعراف}..

ولا يستثنى من ذلك الغريزة الجنسـية الـتى تصـفها بعض الكتابـات بالبهيمية لأن الإسـلام لا ينظر إلى الإنسـان كملاك مـبرء من العيـوب. نعم إن فطرته سـليمة، ولكن الضـعف البشـرى مغـروس فيه والشـهوات الـتى تحيط به قد تنـال منه أو تنحـرف به وهكــذا خُلق الإنســان ضــعيفاً وســوى الله النفس الإنســانية وألهمها فجورها وتقواها وموقفه من تصرفات الإنسان وسلوكه هو الموقف "العقلانى" فهو يعـرف إن الإنسـان لابد أن يضعف أمام الإغراء فيستسلم له، ولكن هذا لا يعد سقوطاً، فهـذه هى الطبيعة البشرية، ولو لم يـذنبوا.. لـذهب الله بهم وجـاء بنـاس يـذنبون ويسـتغفرون فيغفر الله

لهم. وينظر الإسلام إلى الغريزة الجنسية فى جسم الإنسان كالنفط الكامن فى الأرض يستخرج منه الإسفلت الثقيل الذى ترصف به الطرقات ويذلل الوطأ عليها وهو مطلوب بمواصفاته تلك لأنها المطلوبة لوطأ، كما يستخرج منه البنزين الذى يرفع الطائرة إلى عنان السماء ففى الغريزة الجنسية ما يصلح للوطأ، كما أن فيها شعاعاً من الحب يسمو بالنفس البشرية إلى الآفاق العلا.. وقد رفض الرسول حياة الرهبان وعنف من يصوم ولا يفطر ويصلى فلا يفتر وأن لا يقرب النساء، واعتبر ذلك مخالفاً للفطرة وللسُنة، واعترف بالغريزة الجنسية وأثاب عليها عندما توضع موضعها[4].

ثانياً: انتفاء المؤسسة الدينية:

مع أن انتفاء المؤسسة الدينية له طابع سلبى إلا أن هذه السلبية هى الباب الذى يفسح السبيل أمام العلمانية. ومن هنا اكتسبت أهمية خاصة به. وقد رأينا فى الفصل السابق أن وجود المؤسسة الدينية وهيمنتها فى المجال السياسى والمجال الفكرى كان هو الدافع الأول لظهور العلمانية، كرد فعل ولولا وجودها لأمكن للفكر الإنسانى أن يسير دون أن تقفه المحرمات والمقدسات التى اعتبرت "تابو" لا يجوز للفكر المساس بها.

وقد استبعد الإسلام المؤسسة الدينية التى تحتكر التفسير والتأويل والتحريم والتحليل وتكون واسطة بين الفرد والله وتؤدى وظائفها داخل مبنى له شروط معينة ككنيسة أو معبد ولا تجوز ممارسة الشعائر الدينية فى أى مكان آخر أو على أيدى رجال آخرين. واعتبر أن قيام الأحبار والرهبان بالتحليل والتحريم والوساطة بين الفرد والله نوع من الشرك... كما لم يربط بين أداء الشعائر بالمبنى المعين الذى تقيمه المؤسسة.

وقد كان من الأسباب التى أدت إلى انتفاء المؤسسة الدينية فى الإسلام بساطة ونصوع فكرة الألوهية وعدم قيامها على لاهوت يشق على الرجل العادى إدراكه ويحتاج إلى حبر أو قس أو كاهن متخصص.

وقد بنى القرآن الإيمان بالله نتيجة للخلق، وأن هذا الكون لابد وأن له خالق ودلل على منطقية ذلك ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾. {35 الطور}..

وهذه الحقيقة كانت من أكبر أسباب "علمانية" الإسلام لأنه أبعد كل المحاولات اللاهوتية التى تستعصى على العقول من مجال العقيدة.

وأدى حرص الإسلام على عدم قيام المؤسسة لأن يحمل حملة شعواء على الأحبار والرهبان، وأن يعتبرهم إحدى القوى التى تصد عن الهداية ويحرفون الكلم عن مواضعه.

- ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. {31 التوبة}..
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأحبارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. {34 التوبة}..
- ﴿مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلاً﴾. {46 النساء}..

---

[4] (4) انظر أيضا ص 38.

▪ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. {13 المائدة}..

▪ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. {75 البقرة}..

والحقيقة إن الإسلام لم يستبعد فحسب قيام المؤسسة الدينية بل إنه جرد الرسل وهم الذين يمثلون الدين ويبلغونه للناس من كل سلطة سوى سلطة "البلاغ" وأن الهداية إنما هى من الله. والرسول لا يملك أن يهدى – ضرورة – من أحب.

واقرأ إذا شئت:

▪ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. {272 البقرة}..

▪ ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. {56 القصص}..

▪ ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. {8 فاطر}..

▪ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. {99 يونس}..

وحدد القرآن للرسول ما يفعله عند إعراض من يدعوهم..

▪ **﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾. {41 يونس}..**

▪ **﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. {12 هود}..**

▪ **﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾. {40 الرعد}..**

▪ **﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾. {94 الحجر}..**

▪ **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾. {82 النحل}..**

▪ **﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾. {45 ق}..**

▪ **﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**(52) **أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. {55 الذاريات}..**

▪ **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. {6 الشورى}..**

▪ **﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى**(5) **فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**(6) **وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى﴾. {7 عبس}..**

▪ **﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ**(21) **لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾. {22 الغاشية}..**

وهذه الآيات التى تقصر صلاحيات الرسول على التبليغ دون محاولة الهداية تقرر ضمناً حق الآخرين فى الرفض، وإرجاء حسابهم إلى الله تعالى يوم الدين، وتوجه الرسول لأن لا يستشعر غضاضة من ذلك أو يحس ضيقا لأن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه من طبيعة النفوس التى جبلها الله، وأن الإلحاح فى الوعظ أو الجذب قد يوجد

أثراً عكسياً. فى حين أنه لو تـرك وشـأنه فربما يعيد التفكـير فيتـوب ويتـوب الله عليه وقد يعمل الكثير من الحسنات ليكفر عن سيئاته ويجعل الله تعـالى سـيئاته حسـنات.. فضلاً عما يعلمه الله من غيب لا يعلمه الرسول، فقد يكون لهذا الرافض مسـتقبل فى الإيمان وخدمه الإسلام، وهل هناك من كان أشد عـداوة للإسـلام – فى فـترة ما – من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وقد أصبحا من قادة الإسلام الإعلام.

واستوعب الرسول تماماً هذه التوجيهات، ولهذا كان مطلبه من مشركى قريش "خلوا بيـنى وبين النـاس" لأنهم كـانوا يحولـون بينه وبين الاتصـال بالنـاس أو يرسـلون أتباعهم فى أعقابه.

ولكن علينا أن نعـترف أن تطـور المجتمعـات من مجتمعـات بسـيطة الطبيعة محدودة العدد إلى مجتمعات "إمبراطوريـة" تتضـخم فيها القضـايا والاحتياجـات فـرض على هذه المجتمعات درجة من التخصص وعنـدما بلغ المجتمع الإسـلامى هـذه الدرجة من تطـوره أصـبح من الضـرورى ظهـور فئة تتخصص فى المعرفة الدينية الإسـلامية، تعالجها من منطلق هـذا التخصص فظهر علمـاء دين وليس رجـال دين، فقهـاء وليس أكليروس، ولكن هذه التفرقة بين علماء الدين فى الإسلام ورجال الدين فى المسيحية لم تثبت طويلاً وأصبح علماء الدين فى الإسلام كرجـال الـدين فى المسـيحية يهـدفون دائمـاً إلى احتكـار "المهنة الدينيـة" ويتـذرعون بما جـاء فى سـياق طويل مختلف فى إحدى الآيات ﴿فسألوا أهل الذكر﴾. وهم لا يرون تفرقه بينهم وبين الأطباء والمهندسـين الخ... الذين يلجأ إليهم الناس عندما يريدون علاجا أو يقيمون بناء.

ولنذكر مرة أخرى قصة البشرية مع الأديان وأنه ما أن يقـوم الـدين حـتى يظهر الكهنة، والسدنة، تحت أى اسم وفى أى صورة ما دام الهدف واحد هو الاستحواذ على الدين.

ولكن الإنصـاف يقتضـينا أن نقـول إن المؤسسة الدينية فى الإسـلام لا يمكن أن تقاس بالكنيسة فى المسيحية، لأن الأولى إنما وجدت بحكم التطور واستجابة لضرورة التخصص بينما الثانية موجـــودة بـــالنص فى الكتب المقدسة وبحكم الأوضـــاع الدينية ولهذا، فلم تحكم أبداً المؤسسة الدينية الإسلامية لا بصفة مباشرة أو غير مباشـرة كما حـدث بالنسـبة للكنيسة عنـدما كـانت تحكم بالفعل أو على الأقل هى الـتى "تعمـد" الملوك ملوكا وتقدم لهم التاج. وهو الأمر الذى كان مقرراً حـتى رفضه نـابليون... ولم تُقم المؤسسة الدينية الإسـلامية ولا كـان من سـلطتها أن تنشئ محـاكم دائمة مهمتها الوحيـــدة محاربة الزنادقة والحكم عليهم. وإن حكم الفقهـــاء فى عـــدد من الحـــالات بانحراف، أو حتى بردة البعض ولكنهم كانوا فى حقيقة الحال يمالئون الحاكم فى هـذا، أو يحاولون اكتساب شعبية.

وعلى امتداد الحكم الإسلامى الطويل، كان الملوك والخلفاء، والأمراء هم الذين يحكمـون الفقهـاء والعلمـاء ومع أن بعض هـؤلاء العلمـاء اكتسب شـعبية كبـيرة حـتى أطلقت عليه الجماهير لقب "السلطان" أو "أمـير المؤمـنين" فما من واحد منهم كـان له حظ فى الحكم أو يملك سيطرة على الحاكم وقصارى ما وصلوا إليه هو رفض قرار من قرارات يضطر الحاكم النزول عنه عندما يرى أن هـذا التجـاوب سيكسـبه شـعبية، فهو الكاسب فى النهاية.

ثالثا: تقرير الإسلام حرية الفكر..

من أكبر العوامل التى تـدعم العلمانية تقرير الإسـلام حرية الفكـر. وقد رأينا أن محاولة الكنيسة إغلاق أبواب التفكير ومقاومتها لكل العلماء والمكتشفين فى مجـالات الطبيعة، والفلك، والرياضة الخ... كـان من أكـبر أسـباب الثـورة عليهـا، وإقامة مجتمع يعـترف بحرية الفكر ويفتح الأبـواب أمـام الـذين يريـدون التعـرف على عـوالم العلم

وأسرار الطبيعة وما فى هـذا الكـون من قـوى، بل وما فى النفس الإنسـانية، والجسم الإنسانى من مكونات هى سر انتظام صحة الإنسان...

فى هـذا المجـال أسـهم الإسـلام في تـدعيم دعـائم العلمانية بتهيئة منـاخ حرية الفكر بحيث أن المجتمعـات الإسـلامية الأولى إكتسـبت – رغم قيامها على الإسـلام طابعاً حراً، وإن كان واجبا الإشارة إلى أن هذا الطـابع لم يسـتمر، لأن عوامل التخلف والتدهور زحفت على المجتمعات الإسلامية، وكان من آثارها "إغلاق باب الاجتهاد".

ومن أهم النقط إن القرآن لم يكتف بتقرير حرية الاعتقـاد، بل إنه أبـرز بوضـوح وجلاء إن هـذه القضـية قضـية شخصـية فرديـة. فمن آمن فلنفسـه، ومن كفر فعليهـا. ومعـنى هـذا أن هـذه القضـية لا تـدخل فى إطـار "النظـام العـام" الـذى يـبرر تـدخل السلطات على نقيض ما تذهب إليه التقاليد المرعية، قديما وحديثاً.

وهذه ما توضحه الآيات التالية:

1- أن الإيمان والكفر قضية شخصية لا تدخل فيها ولا إكراه عليها:

- ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَـدْ تَبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُـرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُـؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. {256 البقرة}..
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾. {108 يونس}..
- ﴿مَنْ اهْتَـدَى فَإِنَّمَا يَهْتَـدِي لِنَفْسِـهِ وَمَنْ ضَـلَّ فَإِنَّمَا يَضِـلُّ عَلَيْهَا وَلا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾. {15 الإسراء}..
- ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. {29 الكهف}..
- ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَـيْءٍ وَأُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ**(91)** وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَـدَى فَإِنَّمَا يَهْتَـدِي لِنَفْسِـهِ وَمَنْ ضَـلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنذِرِينَ**(92)** وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِـهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. {93 النمل}..
- ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾. {44 الروم}..
- ﴿هُـوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَـرَ فَعَلَيْـهِ كُفْـرُهُ وَلا يَزِيـدُ الْكَـافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا﴾. {39 فاطر}..
- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَـدَى فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ ضَـلَّ فَإِنَّمَا يَضِـلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. {41 الزمر}..

2- أن الهداية إنما هى من الله، وطبقاً لمشيئته..

- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. {272 البقرة}..
- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَـافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَـهُمْ بِمَا كَسَـبُوا أَتُرِيـدُونَ أَنْ تَهْـدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾. {88 النساء}..
- ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَـأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُؤْمِنِينَ**(99)** وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُـؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾. {100 يونس}..

- ﴿إِنَّكَ لا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِينَ﴾. {56 القصص}..
- ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِـلُّ مَنْ يَشَـاءُ وَيَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ فَلا تَـذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. {8 فاطر}..

3- أن الاختلاف فى العقائد بين البشر مما أراده الله تعـــــالى وهو يفصل فيه يوم القيامة.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هَـادُوا وَالنَّصَـارَى وَالصَّـابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ﴾. {62 البقرة}
- ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَـارَى عَلَى شَـيْءٍ وَقَـالَتْ النَّصَـارَى لَيْسَـتْ الْيَهُـودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. {113 البقرة}..
- ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَـى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**(136)** فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. {137 البقرة}..
- ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْـرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُـوا يَـأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. {148 البقرة}..
- ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. {84 آل عمران}..
- ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَلا يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ**(118)** إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِـذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. { 119 هود}..
- ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَـابِ إِلا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ وَقُولُـوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْــزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْــزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِــدٌ وَنَحْنُ لَــهُ مُسْــلِمُونَ﴾. {46 العنكبوت}
- ﴿قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَـادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. {46 الزمر}..
- ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيـهِ مِنْ شَـيْءٍ فَحُكْمُـهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْـهِ تَـوَكَّلْتُ وَإِلَيْـهِ أُنِيبُ﴾. {10 الشورى}..
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**(1)** لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُـدُونَ**(2)** وَلا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ مَا أَعْبُـدُ**(3)** وَلا أَنَا عَابِـدٌ مَا عَبَــدتُّمْ**(4)** وَلا أَنْتُمْ عَابِــدُونَ مَا أَعْبُــدُ**(5)** لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. {6 الكافرون}..

4- أنه لا يوجد حد دنيوى عن الردة..

- ﴿أَمْ تُرِيـدُونَ أَنْ تَسْـأَلُوا رَسُـولَكُمْ كَمَا سُـئِلَ مُوسَـى مِنْ قَبْـلُ وَمَنْ يَتَبَـدَّلْ الْكُفْـرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. {108 البقرة}..
- ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. {217 البقرة}

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الضَّالُّونَ﴾. {90 آل عمران}..
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾. {137 النساء}..
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. {54 المائدة}..
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. {74 التوبة}..
- ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. {106 النحل}..
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾. {25 محمد}..

ويجب الإشارة إلى أن هذه النصوص القرآنية أفضل بمراحل من النص فى الدستور المصرى سنة 1923 الذى هو قمة الليبرالية التى وصلت إليها الدساتير المصرية وهو "حرية الاعتقاد مطلقة" المادة 12 لأن النص الأول لهذه المادة الذى وضعته اللجنة المكلفة بذلك كان "حرية الاعتقاد الدينى مطلقة" ولكن الشيخ بخيت وهو أحد أعضاء لجنة وضع الدستور اعترض عليها قائلاً "إن المادة بحالتها الحاضرة لا يقرها دين من الأديان لأنها تؤدى إلى الفوضى والإخلال بالنظام وأطلب أن يكون النص قاصرا على الأديان المعترف بها سواء أكانت سماوية أم غير سماوية فلا يسمح بأحداث دين جديد كان يدعى مثلا أنه المهدى المنتظر ويأتى بشرع جديد" ولقد أيد هذا الاقتراح نيافة الأنبا يؤانس بقوله "اقتراح الأستاذ مفيد ولنا عليه دليل قريب، فإن سرجيوس خرج على الدين – المسيحية – وشرع فى استحداث دين جديد وطلب من الحكومة الترخيص له بذلك فرفضت وهذا دليل على أنه لا يمكن الترخيص بغير الأديان المعترف بها" كما اقترح الشيخ محمد خيرت راضى بك حذف كلمة الدين من الفقرة الأولى فتصبح "حرية الاعتقاد مطلقة" وشرح اقتراحه بقوله (وبغير ذلك يتاح لكل شخص أن يترك دينه ويعتنق دينا آخر دون أن يتحمل مسئولية ذلك من جزاء مدنى وغير مدنى) وقد تساءل إبراهيم الهلباوى بك فى حالة ما إذا أخذ الاقتراح وأصبحت الفقرة (حرية الاعتقاد مطلقة) عن أى اعتقاد يقصد المقترح وهل يدخل فيه الاعتقاد الدينى أولا، فرد الشيخ بخيت بقوله الاعتقاد شىء والدين شىء آخر، فالمسلمون اختلفوا إلى ثلاث وسبعين فرقة – لكل فرقه اعتقاد خاص – مع أن لهم دين واحد" وفى جلسة 28 من أغسطس 1922 قال الشيخ بخيت (حسما للنزاع الذى قام بشأن المبدأ الخاص بحرية الأديان أقترح أن تحذف كلمة الدين من صدر المادة، لتكون حرية الاعتقاد مطلقة بدلا من أن تكون حرية الاعتقاد الدينى مطلقة) موافقة عامة.

وقد أوضح الحكم الذى أصدرته الدائرة الرابعة بمجلس الدولة بتاريخ 26 مايو سنة 1952 فى قضية البهائيين تفسير هذه المادة استنادا إلى أعمال اللجنة التحضيرية على النحو التالى (لقد أصبح النص يحمى المسلم الذى يغير مذهبه من شافعى إلى حنفى مثلاً، والمسلم الذى يترك فرقة الشيعة وينضم إلى فرقة أهل السُنة أو فرقة الخوارج أو المعتزلة، كما يحمى النص المسيحى الذى يدعى الكثلكة أو يتمذهب بالبروتستانتية ولكنه لا يحمى المسلم الذى يرتد عن دينه من أن يتحمل

مسئولية تلك الردة مدنية كانت أو غير مدنية كما لا يبيح لأى شخص أن يدعى أنه المسيح نزل إلى الأرض أو المهدى المنتظر أو أنه رسول جديد يهبط عليه الوحى من السماء أو أنه صاحب كتاب سماوى إذ لا حماية لهذا الدعى من الدستور بحسب النص الجديد)، وهكذا بدلا من أن يتصور السذج من أمثالنا أن عبارة (حرية الاعتقاد مطلقة) أقوى من عبارة (حرية الاعتقاد الدينى مطلقة) فى دلالتها على حرية العقيدة، نرى هنا فهما آخر، مضمونة أن عدم ذكر الاعتقاد الدينى بالذات فى النص، معناه أن حرية الاعتقاد الدينى مستثناه وأنها غير مطلقة، ولست فى حاجة إلى أن أذكر أن نفس التفسير ظل واردا فى النص الجديد (الحالى) فى الدستور، والدليل على ذلك حكم المحكمة الإدارية فى القضية الأخيرة للبهائيين أيضاً والذى استند إلى نفس التفسير للتفرقة بين حرية العقيدة وهو ما ورد فى الدستور، وحرية العقيدة الدينية وهو ما لم يرد، فاعتبر استثناء[5].

وأفضلية النصوص القرآنية التى أوردناها تثبت بصراحة وجلاء ثلاثة أمور الأول أن النص هنا على الاعتقاد الدينى الذى تحاشاه النص الدستورى. الأمر الثانى أنه قاطع فى الحرية "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" الأمر الثالث أنه جعل الإيمان والكفر قضية فردية، شخصية وبالتالى لا يجوز للنظام العام التدخل فيها ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾. {15 الإسراء}..

ولا يماثل النصوص القرآنية إلا النصوص التى جاءت فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان المادة 18.

* * *

وعلى نقيض ما يتصور البعض، فإن عمل الرسول وسياسته كانت تطبيقاً للآيات القرآنية، وعندما دخل المدينة لم يرحب به بعض سراة المدينة وشيوخ قبائلها لأنهم وجدوا أن هذا الدين سيحرمهم من مزاياهم القبلية وسيجعلهم سواسية مع بقية الناس. وكان كبير هؤلاء عبد الله بن أبَّى سيد الخزرج الذى كانوا ينظمون الخرز فى تاج له ليكون ملكا أو رئيساً فلما جاء الإسلام آلت الرئاسة إلى الرسول وإلى المؤمنين.

وتكون من هؤلاء ومن اليهود حلف جعل همه الكيد للرسول وإقامة العراقيل فى وجه الدعوة الجديدة والتآمر عليها. وقد وصل الأمر بعبد الله بن أبى أن انخذل بثلث الجيش عندما قرر الرسول الخروج فى غزوة أحد، فلم يخرج وبقى بالمدينة، وكان من أساليبهم إدعاء الإيمان ثم الكفر بعد ذلك لزعزعة إيمان المسلمين وإشاعة الشائعات ونشر الأكاذيب، وهؤلاء هم المنافقون الذين كشف الله سترهم، وأعلن خبيئة نفوسهم فى عدد من الآيات بل وأنزل سورة خاصة بهم هى سورة المنافقين.

فماذا فعل الرسول بهؤلاء الذين قال فيهم القرآن ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾. وقال ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾.وقال ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وهى آيات صادعة بردة هؤلاء وكفرهم بعد إسلامهم...

لقد أحسن الرسول إليهم، وتغاضى عنهم وعندما عرض ابن عبد الله بن أبى وقد كان من خيرة المؤمنين أن يأتى الرسول برأس أبيه حتى لا يقتله أحد المسلمين فيجد فى نفسه غضاضة قال الرسول "بل نحسن صحبته".

* * *

[5] **(5) أنظر "الطائفية إلى أين" بحث الدكتور فرج فوده ص 40 – 42 دار المصرى الجديد للنشر – المكتبة السياسية 12 القاهرة.**

وجاء فى رسالة "السلفية المعاصرة إلى أين ؟" "ومن هم أهل السُنة" لفضيلة الشيخ محمد زكى إبراهيم رائد العشيرة المحمدية، وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عرضا لبعض نماذج الذين ارتدوا على عهد الرسول فلم يقم عليهم حداً، ولم يطلب لهم استتابة ومن هؤلاء:

- **ارتد فى حياته بعض المسلمين أفراداً أو جماعات، وبعضهم كان ارتداده مرات لا مرة واحدة فما قتل أحدا منهم.**
- **ارتد رجل آخر عن الإسلام بعد أن كان من كتاب الوحى للرسول، ولم يتورع – مع ارتداده أن يقول الكلمة المنكرة التى رواها البخارى وغيره "ما يدرى محمد إلا ما كتبت له".**

وعلى الرغم من ذلك كله تركه رسول الحرية حراً طليقاً وقبل فيه الشفاعة حتى مات على فراشه (أنظر هداية البارى إلى ترتيب أحاديث البخارى).

- **وارتد اثنا عشر مسلما عن الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرجوا من المدينة إلى مكة ومنهم الحارث بن سويد الأنصارى، فما أهدر الرسول دم أحد منهم، ولا حكم بقتل مرتد منهم واكتفى القرآن بقوله عنهم "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين".**
- **وارتد عبيد الله بن جحش بعد إسلامه وهجرته إلى الحبشة واعتنق النصرانية هناك فما أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه، ولا طلب من النجاشى تسليمه إليه ولا أوعز إلى أحد بقتله.**
- **واعتنق النصرانية كذلك ولدان شابان من الأنصار فشكاهما أبوهما إلى الرسول قائلاً "يا رسول الله أدع ولداى يدخلون النار" فلم يقل له الرسول مثلاً اقتلهما أو دعنى اقتلهما وإنما أسمعه الآية القرآنية ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾.**

أما الأحاديث التى نسبت إلى الرسول عن عدم جواز قتل مسلم إلا فى حالة من ثلاث: قتل نفس، وزنا بعد إحصان والمارق عن الدين المفارق للجماعة. فقد ذهبت أغلبية العلماء، بما فيهم ابن تيميه إلى أن المقصود بالمارق عن الدين المفارق للجماعة هو ما يقرن ردته عن الإسلام بمحاربة الإسلام وأنه لم يحدث أن قتل أحد لمجرد ردته.

أما الحديث الذى يعتبرونه أقوى ما فى الباب وهو حديث "من بدل دينه فاقتلوه" فإن رواية البخارى لهذا الحديث جاءت عن عكرمة. وقد قبله البخارى، ولكن مسلم رفض كل أحاديث عكرمة، ولم يتضمن مسنده هذا الحديث بناء على قرائن توفرت له تجرحه ولا جدال أن هذه شبهة كبيرة تدعو إلى استبعاده فضلاً عن أن عمل الرسول يخالفه، بل وأيضاً عمل الصحابة والتابعين "لم يكفر الصحابة "القدرية" الذين قالوا أن الله لم يقدر – ولا يقدر – على تقدير الهدى أو الضلال على أحد، بل قالوا أن الإنسان يخلق عمل نفسه لنفسه بنفسه.. هداية أو ضلالا.

ولم يكفر الصحابة الفرق التى زعمت منهم أن الله أجبر الخلق وأكرههم على ما هم عليه، وأن الكفر والإيمان والطاعة والمعصية فى الناس كالبياض والسواد، والطول والقصر، فى خلقة الآدمى، ما للمخلوق فى ذلك صنع ولا يد.

بل إنه لما قتل إمامهم غسل وكفن وصلى عليه ودفن فى مقابر المسلمين.

ولم يكفر التـابعون أحـدا من المعتزلة الـذين قـالوا بخلق القـرآن، وأن مـرتكب الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين فلا هو مسلم ولا هو كافر، بل هو خالد فى النــار، وأن الله لا يخلق ولا يُقـدِّر على العبـاد الـذنب أو المعصـية، بل العبد يخلقها ويقترفهـا، وأن الله لم يتكلم، وأن القرآن ليس بكلام الله، بل هو خلق مما خلق اللــه، فليس لله كلام عندهم.

ولم يكفروا المرجئة الذين يقولـون: ليس على العـرش إله يعبـد، وليس لله فى الأرض كتاب لله ولا ألواح ولا كلام، وينكرون المعـراج نهائيـا، كما ينكـرون صـفات الله التى جاءت فى القرآن، حتى قـال فيهم ابن المبـارك أنا لنحكى قـول اليهـود ولا نحكى قـول الجهميـة، ومع هـذا عنـدما قتل زعيمهم (الجهم بن صـفوان) ووزيـره (الجعد بن درهم) غسـلوهم وكفنـوهم وصـلوا عليهم ودفنـوهم فى مقـابر المسـلمين ولم يجـروا عليهم حكم الردة ولا الزندقة ولا الكفر أو الإشراك أو الوثنية، مع أن هؤلاء وسـابقوهم هم أصول الفرق الاثنتين والسبعين التى جاءت فى الحديث المشهور. إن كان صحيحاً.

وقد نقل ابن تيميه أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكفر أهل هـذه الفـرق بل صـلى (أحمــد) رضى الله عنه خلف بعض الجهمية وبعض القدرية وأن أكــبر ما توصف به كل تلك الفرق عند ابن تيميه هو الفسق" انتهى[6].

أما حـــروب الـــردة فى عهد أبى بكر – كما يطلق عليها – فمعـــروف أن معظم المرتـدين كـانوا يؤمنـون بالله ويصـلون ويصـومون، ولكنهم رفضـوا الزكـاة ورفضـوا السلطة المركزية للدولة المتمثلة فى خلافة أبى بكر فهى تمرد عسكرى على الدولـة، كما كانت ردة القبائل الأخـرى ثـورة على الدولة الإسـلامية، فهى حـروب اقتصـادية أو سياسية وليست حروباً فكرية أو عقيدية

رابعاً: تقرير الإسلام لمبدأ "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"..

أبرز الإسلام مبدأ جديداً فى مجال العمل العام هو "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" واعتبر أن هذا الإجراء ما يمـيز الأمة الإسـلامية على الأمم الأخـرى ﴿كُنْتُمْ خَيْـرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنْ الْمُنكَـرِ﴾. وقدمه القـرآن فى بعض آياته على الصلاة والزكاة فقال ﴿وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَيُطِيعُـونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {71 التوبة}..

يُعد الأمر بـــالمعروف والنهى عن المنكر – أحد ضـــمانات العلمانية لأنه ليس إلا ترخيصاً بحرية الفكر وتأكيـداً عليها إيجابا وسـلبا – ولو انعـدم الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر لكان من المحتمل دخـول منكـرات لا عـداد لها دون احتجـاج أو نقد ولكـان من الممكن لبعضها القضـاء على الحرية نفسـها، ولكـان من الممكن أيضـاً أن لا يوجد المعـروف، أو أن تكـون ممارسـته ممارسة سـيئة دون أن يوجد من يصـحح السـقيم ويستكمل الناقص أو تكون القاعدة فى هذا المجتمع هى "ألانا مالية" "أنا مالى"..

ولكن إسـاءة فهم الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر يمكن أن تجعل منه أداة لـوأد العلمانية، أو الحيف عليها لا أن يكـون ضـمانا لهـا. عنـدما يتخـذه أنصـار النظـرة الأحادية، وأصحاب شـعار " **قولاً واحـداً** " سـلاحاً بتـاراً يسـلطونه على كل صـاحب نظرة مختلفة، وقد لا يتسبب عن هـذا شر مسـتطير ما دام محصـوراً فى إطـار الفكر (أو اللسان – كما يشير الحديث المشهور"من رأى منكم منكراً فليغيره بيـده، فـإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان) ولكن يغلب أن ينتقل من

---

[6] **(6) السلفية المعاصرة إلى أين؟ - مرجع سابق.**

إطار الفكر واللسـان إلى مجـال اليد والعمل لأن الحـديث جعل الأولوية للتغيـير باليـد، وإنما جعل اللسان والقلب عند عدم الاستطاعة.

لقد جاءت صياغة الحديث الذى يعد عماد هذا التوجيه مختلفة عن صياغة الآيـات القرآنية. فهـذه الأخـيرة تقتصر على الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر فى حين أن الحديث يتضمن تغييراً لا مجرد أمر ونهى وحدد له ثلاث مسـتويات هى اليـد، واللسـان والقلب، ولابد لاختلاف هذه الصياغة من مبرر.

فى نظرنا أن تضمن الحديث التغيير باليد **إنما يراد به حالات معينه لا يكون فيها بديل آخر. فإذا وجد أحدنا فرداً يحاول القيام بجريمة ما كأن يشـعل ناراً فى بيت أو يضـرب حيوانـاً بقسـوة.. أو حـتى يحـاول الانتحـار عندئذ يصبح اللواذ باليد أمراً لا مناص عنـه..** أما ما يـورده الفقهـاء عن سـلطة للفـرد على آخرين تعطيه حق التأديب كسلطة الأب على الابن والزوج على الزوجـة، فهـذا ما لا نفضل الخوض فيه تأسيا بالرسول الذى ما ضرب أحداً قط، ولا خادماً.

ونعتقد أن تفسـير حـديث "من رأى منكم منكـراً.." لابد أن يستصـحب الآيـات العديدة التى حدد الله تعالى للرسل طريقة التبليغ، وضرورة الاقتصـار عليـه، وأوردناها آنفا والحذر من أن يأسى لـرفض المشـركين. أو أن يحـاول اكتسـاب الإيمـان بمختلف الطرق. فمن غـير المعقـول أن يتصـور أحد من عامة المسـلمين أو خاصـتهم أنه أكـثر غيرة على الإسلام من الرسول، أو أن عليه أن يفعل أكثر مما وجه القرآن رسوله..

هـذه كلها آفـاق قد لا يلم بها الآمر بـالمعروف والنـاهى عن المنكر خاصة إذا لم يكن عميق الخبرة بالنفس الإنسانية، وهى صفة قلما تتوفر لعامة النـاس، وإنما تتـوفر لديهم بـدلاً منها الحماسة والانـدفاع. فهـذه الآيـات ترسم للأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر الموقف الأمثل بحيث يُعرف أن دوره ينتهى بمجرد الأداء باللسان أو القلب. أما تطبيق التغيير باليد فلا يكون إلا فى حالات الضرورة المحـددة الـتى أشـرنا إليها آنفـا، وفى غير هذه الحالات تكون أى محاولة لتغيير المنكر باليد مجافية تماماً لروح الآيـات، ولن يكون الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أكثر حرصاً على الإسـلام من الرسـول الـذى كلفه الله بحمل رسـالة الإسـلام ولن تكـون عاطفته أشد وحرصه على الهداية أعظم، ومع هذا فقد وجهه القرآن ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى﴾. {7 عبس}.

فهـذه الآيـات هى الـتى تفسر طريقة فهم وتطـبيق حـديث تغيـير المنكر وهى حاكمة عليـــه، وضـــابطة له لأن من أعسر الأمـــور التفرقة ما بين النية الموضـــوعية الخالصة فى التغيـــير، وما يمـــتزج بها امـــتزاج اللحم والـــدم من مشـــاعر شخصـــية، وانطباعـــات خاصة ورغبة فى النهى والأمر "والشـــخط **والنـــتر" وهى تعـــود إلى الزهو والغـرور، وهما من الموبقـات، ومحاولة تلـبيس المعـنى الخـاص الثوب العام، وهى صورة من النفـاق النفسى الـذى يتطـرق إلى النفس بأخفى من دبيب النمل..**

خامساً: تقرير الإسلام التعددية..

من الاتجاهـــات الـــتى أقرها الإســـلام ودعا إليها فى العديد من الآيـــات القرآنية التعددية الـتى تعد إحـدى خصـائص المجتمع العلمـانى، وهى ناحية ليست فحسب قد خفيت عن ملاحظة معظم الكتاب الإسلاميين قدامى ومحـدثين، بل أيضـاً ذهب البعض إلى نقيضها. فرأى أن الإسـلام هو دين التوحيـد، ومن ثم فإنه يفـترض الوحـدة فى كل شىء إله واحـد، أمة واحـدة، مـذهب واحـد، حـزب واحـد، قائد واحد الخ... وفـاتهم إن الإسـلام عنـدما قـرر، وأكد التوحيد لله تعـالى فإنه أكد أن هـذا التوحيد له وحـده، وأن إفراد الله تعالى بالوحدانية يستتبع التعددية فيما عـداه، وإلا لاشـترك ما عـداه معه فى الوحدة وهو يقـول "لا شـريك لـه" و"لا إله إلا اللـه" ومن هنا فـإن المجتمع الإسـلامى،

على ما قد يبـــدو فى ذلك من مفارقة – هو مجتمع التعدديـــة. وما يســـتتبعه هـــذا من علمانية وقد كـان المجتمع الإسـلامى الأول الـذى قـرره الرسـول فى وثيقة الموادعة مجتمعاً تعدديا يعتبر أن المهاجرين والأنصار، واليهود المتحالفين مع الأنصار أمة واحـدة للمؤمـنين دينهم ولليهـود دينهم.. وكـان يمكن أن يظل مجتمع المدينة كـذلك لـولاً أن نكث اليهود..

صحيح أن هذا الاتجاه لم يتبع فى العهود المتأخرة وأن نوعا من التعصب الضـيق ببعض المجتمعـــات الإســـلامية فـــرض صـــورة من "الوحـــدة" ليس فحسب ما بين المسلمين وغيرهم، بل ما بين المسـلمين أنفسـهم فاسـتقلت الشـيعة عن السُـنة، ثم تقوقعت المذاهب كل فى قوقعته، ولكن هذا كله لا يحسب على الإسـلام لأنه من آثـار الفساد الذى تطرق إلى المجتمع الإسلامى وشوه كل شـىء: التوحيـد، الفقـه، الحكم، المرأة الخ...

أما إذا حكمنا على المجتمع الإسلامى بحكم القرآن. فـإن القـرآن يقـول بصـريح العبـــارة ﴿وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُـوَكُمْ فِي مَا آتَـاكُمْ فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْـرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِـعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. {48 المائدة}..

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**(118)** إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِـذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. {119 هود}..

ويلحظ أن المجتمع الإســلامى المتــأخر، وإن لم يتبع التعددية تمامــاً، إلا أنه لم يضق بوجود جاليات غـير إسـلامية، فقد سـمح لها بـالوجود وأعطاها الحرية فيما يتعلق بشـرعها وقـدم لها الحماية لقـاء رسم يعد زهيـدا هو "الجزيـة" الـتى كـان النسـاء والمسنون والأطفال يعفـون منهـا. وهـذه الصـورة تعد نـادرة "ومتقدمـة" بالنسـبة لما كـانت عليه أوروبا فى هـذه العصـور، إذ كـانت تـرفض تمامـاً التعددية وقد استأصـلت الإسـلام من كل المنــاطق الـتى فتحتهــا، بل إنها لم تسـمح بالتعددية المذهبية داخل المسيحية نفسها، والحروب بين الكاثوليك والبروتستانت غطت التاريخ الوسيط لأوربا، ولا يزال بعضها حيا وموجوداً فى أيرلندا.

وهذا السماح من المجتمعات الإسلامية يعـود إلى ما قـرره القـرآن من ضـرورة إيمان المسلمين بكل الشرائع والأديان والأنبياء، كما نصت على ذلك آيات عديدة.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هَـادُوا وَالنَّصَـارَى وَالصَّـابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ﴾. {62 البقرة}..
- ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَـارَى عَلَى شَـيْءٍ وَقَـالَتْ النَّصَـارَى لَيْسَـتْ الْيَهُـودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. {113 البقرة}..
- ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُـوبَ وَالأَسْـبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَـى وَعِيسَـى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. {84 آل عمران}..
- ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَلا يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ**(118)** إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِـذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. {119 هود}..
- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُـلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُـدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**(24)** قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. {25 سبأ}..

- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**(1)** لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُـدُونَ**(2)** وَلا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ مَا أَعْبُـدُ**(3)** وَلا أَنَا عَابِـدٌ مَا عَبَــدتُّمْ**(4)** وَلا أَنْتُمْ عَابِــدُونَ مَا أَعْبُــدُ**(5)** لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. {6 الكافرون}..

وتحدث القرآن الكريم عن اليهود والنصارى حديثاً منصـفاً، يمثل الحيـاد والنزاهة التامة مما يعدُّ درساً فى الموضـوعية والإنصـاف، ففى الـوقت الـذى نـدد فيه بتعصب وإصرار اليهود، فإنه أعترف بما لدى البعض منهم من فضائل فقال..

- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَـارٍ يُـؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِـدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْـهِ قَائِمًا ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَـبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. {75 آل عمران}..
- ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ(**113)** يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَــوْنَ عَنْ الْمُنْكَـرِ وَيُسَـارِعُونَ فِي الْخَيْـرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّـالِحِينَ**(114)** وَمَا يَفْعَلُـوا مِنْ خَيْـرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾. {115 آل عمران}.
- ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْــتَرُونَ بِآيَــاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْــرُهُمْ عِنْــدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَــرِيعُ الْحِسَابِ﴾. {199 آل عمران}..
- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَـدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُوا وَلَتَجِـدَنَّ أَقْـرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِــينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**(82)** وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُـولِ تَـرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الـدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾. {83 المائدة}..

واستغرب القرآن أن يدعوا اليهود الرسول ليحكم بينهم فقال:

- ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمْ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾. {43 المائدة}..

وتحدث عن الإنجيل..

- ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَـةً لِلْمُتَّقِينَ﴾. {46 المائدة}..
- ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيـلِ بِمَا أَنـزَلَ اللَّهُ فِيـهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنـزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾. {47 المائدة}..

وكان توجيه القرآن للحكم على الآخرين أولهم، أن يـترك ذلك للـه. وأنها أمم قد خلت لها ما كسـبت "ولا تسـألون عما كـانوا يفعلـون". "وأن الله أعلم بمن يضل عن سبيله"...

وقال بصريح العبارة..

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُـوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَـكُمْ لا يَضُـرُّكُمْ مَنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَــدَيْتُمْ ﴾[7]. {105 المائدة}..
- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾{ 134 البقرة}..

---

7 **(7) لقد التبس معــنى هــذه الآية على بعض الصــحابة وظنــوا أنها تنسخ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى بين لهم الرسـول أنها عن النصـارى واليهـود، ويبـدو أن هـذا التفسـير لم يصل إلى جميع الصـحابة فوجد فى عهد أبى بكر من يقع فى اللبس حــتى بينها لهم (انظر مســند الإمــام أحمد بن حنبــل).. (الفتح الربانى) ج18 ص 134.**

- ﴿قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. {25 سبأ}..
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾. {30 النجم}..
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين ﴾. {7 القلم}..

سادساً مبدأ البراءة الأصلية:

يأخذ الإسلام بمبدأ على أعظم جانب من الأهمية والخطورة هو مبدأ "البراءة الأصلية" والبراءة الأصلية من أجمل وأثمن التعبيرات فى الفكر الإسلامى، وأهميتها لا تقتصر على جانب "الحلال والحرام" إذ أنها تعبر عن فهم الإسلام للإنسان وللطبيعة البشرية، وطبقاً لها، فالإنسان أصلاً برىء ولكن يمكن أن ينزلق إلى الخطأ إذا تهيأت دواعى ذلك. وقصة آدم – كما قدمها القرآن – تصور ذلك، فقد خلق الله تعالى آدم ونفث فيه من روحه، وكرمه ووهبه العلم والوجدان، وأسكنه الجنة، وآنس وحشته بحواء فعاش فى البراءة الأصلية ردحاً، حتى خدعه الشيطان فغوى، ثم أدرك خطأه فتاب الله عليه، وسواء كانت توبته تلك تعود إلى الكلمات التى تلقاها من الله ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. أم أنه تاب لأن البراءة الأصلية مكنته من أن يتبين "الخطأ" فتاب، وعندئذ أنزل الله عليه كلماته، فإن الأمر فى النهاية واحد: عودة إلى البراءة، وإقلاع عن الخطأ، لأن البراءة هى الأصل، والخطأ عارض .

وتعزّز السُنة هذه الفكرة التى عرضها القرآن، وتجلى أصلا لها قبل أن يتوصل الفقهاء إلى تعبير "البراءة الأصلية" فتحدث الرسول عن **"الفطرة"** وهى كلمة لا تقل جمالاً وإيحاءً عن تعبير "البراءة الأصلية"، وهو يقرر أن الإسلام دين الفطرة، وأن كل واحد يولد على الفطرة، ثم يتولى أبواه تحويله إلى دينهما، يمجّسانه أو يهوّدانه !.

والسُنة لم تبتكر لفظة الفطرة، فهى تعبير قرآنى.. وإنما هى فسّرت ما جاء فى القرآن عندما تحدث عن "فطرة الله التى فطر الناس عليها".

وهذا التكييف لطبيعة الإنسان يعطيه حرية المبادأة ويغرس الثقة فى نفسه، ولا يجعل عليه رقابة أو وصاية كهنوتية، وهذه كلها عوامل تنهض بالفرد، وتنهض بالمجتمع، وتستتبع الحرية، وتفترض عدم القيود.

فالإنسان فى الإسلام برئ يمكن أن يخطئ. ومناط البراءة فى الإسلام هو الفطرة.

* * *

وتستتبع البراءة الأصلية أن يكون الأصل فى الأشياء الإباحة، وأن يعود الاستثناء من هذا إلى أسباب طارئة ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فالتحريم فى الإسلام استثناء، والأصل هو الحل. ومن ثم عنى الإسلام بتحديد التحريم تاركاً الأصل الذى هو الحل.. والحل، أو الحلال فى التعبيرات الإسلامية تماثل تعبير الحرية فى الكتابات الحديثة.

وتتبع الآيات القرآنية يظهر بجلاء أن القرآن يضيق من دائرة الحرام، وأنه يخص الله تعالى وحده بالتحريم والتحليل، ويندد بالذين يعطون لأنفسهم هذا الحق ويضيقون من سعة الحل الذى أراده الله تعالى للناس ويعتبره افتراءً وكذبا على الله..

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾. {103 المائدة}..

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. {32 الأعراف}..

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾. {116 النحل}

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ أَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾. {59 يونس}..

وهناك آيات أخرى عديدة تدعو الناس للاستمساك بالحلال الطيب، وأن يأكلوا ويشربوا ولا يسرفوا، وأن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد الخ...

وفى سبيل تضييق دائرة الحرام، وسد الأبواب على التحريم، حرم القرآن السؤال الذى يفضى إلى مزيد من التحريم فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**(101)** قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. {102 المائدة}..

وتؤكد السُنة هذا فإن الرسول يقول "ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فانتهوا وإذا أمرتكم بشىء فخذوا منه ما استطعتم".

وقال "ما أحل الله فى كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، وما كان ربك نسيا".. فما أجمل هذا الحديث وما أروعه فى معناه ومبناه وما أرق تعبيره "فاقبلوا من الله عافيته".

وقد تكرر هذا الحديث بمعناه ومبناه مرة أخرى "الحلال ما أحل الله فى كتابه والحرام ما حرم فى كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا لكم".. ولاحظ كيف أكد الرسول – وهو المفوض من الله تعالى فى التبليغ والبيان – أن الحرام والحلال هو ما جاء فى كتاب الله.

ومرة ثالثة قال "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها".

وقال "إن أعظم المسلمين جرما، من سأل عن شىء لم يحرم على المسلمين فحرّم عليهم لأجل مسألته" أخرجه البخارى ومسلم.

وأخيراً: الإسلام دين وأمة

وليس ديناً ودولة...

لعل أقوى ما يجمع بين العلمانية والإسلام هو ما انتهى إليه اجتهادنا أخيراً من إن الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة، فالمعروف أن حقيقة العلمانية هى الفصل ما بين الدولة والدين، وهذا الاجتهاد الأخير يتلاقى مع جوهر العلمانية.

وقد بنينا هذا الاجتهاد على أساس مبدأ محورى هو أن السلطة تفسد الأيدلوجيا. ولما كانت خصيصة الدولة هى السلطة، فإنها ما أن تعالج الإسلام حتى تفسده. وقد حدث هذا عندما حولت الخلافة الراشدة إلى مُلك عضوض فيه كل ما فى الملك من سوءات.

وهــذا أمر ليس مقصــوراً على الإســلام، بل هو يشــمل كل القيم كالمســيحية، والاشتراكية، وفى الكتاب الذى أصدرناه عن هذا الموضـوع عرضـنا فى فصل مسـهب كيف حولت السلطة المسيحية وهى دين الحب والسماحة إلى محكمة تفـتيش رهيبـة. كما خصصنا فصـلاً أبرزنا فيه كيف أن السـلطة حـولت الاشـتراكية، وهى أمل العمـال إلى نقمة على العمـال وإلى دولة شـمولية هى الـتى وضـعت أسس الحكم الشـمولى وتتلمذ فيها هتلر وموسولينى، فهو مبدأ عـام. وقد كـانت العلمانية محقة عنـدما ارتـأت الفصل بين الدين والدولة.

ولكن ليس معنى هذا أن الدولة فى أمة مسلمة تكـون علمانيـة. لأن عـدداً كبـيراً من العوامل تفــرض نفســها، وتجعل موقف الدولة يختلف نســبياً عما هو الحــال فى الدول فى الغرب.

فلا شك فى أن الإســـلام وضع أصــــولاً اقتصـــادية وسياسة واجتماعية لصـــلاح المجتمع. ولكنه لم يتقدم بها إلى الدولة التى لم يـذكرها القـرآن ولكن إلى الأمة الـتى ذكرها فى قرابة خمسين موضعاً.

ففى السياسة حرم الظلم والطغيان وأمر بالعدل والشورى وفى الاقتصاد وحــرم الربا والاكتناز والاستغلال وأمر بالزكاة وفى المجتمع أفترض المساواة، ولا فخر لعربى على عجمى إلا بالتقوى وأمثال هذه كثير.

ومن المسلم به إن الدولة الديمقراطية هى التى تتجاوب مع شعبها وتحكم بإرادة جمهورها، فإذا كان هذا الشعب مسلماً فيجب أن يكون هنـاك تجـاوب وتعـاطف خاصة وأن الإسلام يشغل منزلة مكينة فى نفوس المؤمـنين به ويصـبح من غـير المتصـور أن تقف الدولة موقفا حياديا. فمع أن الدولة لا يجوز لها أن تحمل صفة الإسلام أو تمارس مهاماً إسلامية، إلا إنها تظل مع هذا غير علمانيــة. لأنها لا يمكن أن تكـون محايـدة إزاء عواطف الشعب.

وإنما اسـتطاعت الدولة فى الغـرب أن تكـون غـير علمانية لأن الـدين لا يشـغل منزلة عميقة فى نفوس الأوربيين الآن ولأن المسيحية لم تعن بشئون الحياة الـدنيا، أو تضع خطوطاً عريضة كالتى وضعها الإسـلام عنـدما أوجب الزكـاة وعنـدما نـدد بـالظلم والطغيان وعندما أوجب الحكم بالعدل وعندما حرم الربا الخ... بل أكثر من هــذا يمكن أن نقول إن الديانة العميقة التى هى فى جذر المجتمع الأوروبى/ الأمريكى هى الوثنية التى كانت عليها الحضارة اليونانية/ الرومانية وهى أعظم مكونـات الحضـارة الحديثـة. فالدولة فى أوروبا، وإن كانت علمانيـة، إلا إنها تحكم بالـدين الـذى هو فى جـذر إيمـان الأوروبيين وهو تأليه الإنسان. ومن أجل هذا كانت متسقة مع نفسـية شـعوبها. وأخـيراً فيمكن القــول إن الدولة فى أوروبا وأمريكا متعاطفة مع الكنيسة وإن كـانت مسـتقلة عنهـا. لأن الاسـتقلال لا يعـنى الحيـاد. والمحـاولات الـتى تناصر فيها الدولة فى أوروبا وأمريكا الكنائس عديدة... بل أكـثر من هـذا إنها تقف موقفا عـدائيا – وليس محايـداً – من دعوات أو أديان أخرى وأنها تناصر قضية الصهيونية حتى على حساب حرية الفكـر، وهى حجر الزاوية فى الدولة الديمقراطية العلمانية.

إن بعض الكتاب يريد أن يعطينا انطباعاً أن الدولة فى الغرب علمانية تمامــاً مائة فى المائة، ولكن الحقيقة هى ما أشرنا إليه.

ومن ثم فنحن لا نســـتطيع أن نطلق على الدولة – لأمة مســـلمة – وصف العلمانيــة. ولكن "المدنيــة" فدولة الأمة الإســلامية دولة مدنية لا تدعى الإسلام، ولا تمـارس مهامـاً إسـلامية. ويكـون جـوهر دورها هو المهـام المدنية من تعليم ورعاية وخدمة.. ونهضة بالاقتصاد والتنمية، وهى لا يمكن أن تتجـافى

عن إرادة شعبها وعندما يريد شـعبها تطـبيق توجيهـات إسـلامية معينة فعلينا عندئذ أن تنصاع لإرادة شعبها. لأن الأمة – وليس الدولة – هى مصدر السلطات.

ولأن هذا هو المسلك الديمقراطى الذى لا مناص منه.

إن تعبـير الدولة المدنية يحل لنا الإشـكال بين العلمانية الـتى تشئ بموقف محايد من الـدين، وبين الدولة الدينية الـتى تسـخر الـدنيا للـدين. وفى الـوقت نفسه فإنه لا يحيف على المبدأ الأساسى فى الديمقراطية وهو أن تكون الأمة – وليس الدولة – هى مصدر السلطات.

إذا كـان الأمر كـذلك فقد يكـون من الخـير أن يخلص الدسـتور من النص على "الإسلام دين الدولة" أو أن مبادئ الشريعة الإسـلامية المصـدر الرئيسى للتشـريع لأن هـذه يمكن أن تفتـات على طبيعة "المدنيـة" المطلوبة للدولـة، وأنها يمكن أن تسـتغل من قبل فئـات إسـلامية تفسر الإسـلام تفسـيراً يفـرض على الدولة ما يعـارض حرية العقيدة، وما يخالف مقتضيات التطـور والمصـلحة العامة فضـلاً عن أنه يمكن أن يثـير حساسـية الأقبـاط. وهـذه كلها مخـاطر حقيقية يمكن أن تشل "مدنيـة" الدولـة. وقد نشأت عن الـوهم العميق فى الفكر الإسـلامى عن أن الدولة هى حامية العقيـدة. وهو أمر لا ينفـرد به المسـلمون، فقد كـان الأوروبيـون يؤمنـون به أيضـاً، ونجـده فى بعض التعبيرات التى تجعل الملك (أو الملكة) حاميا للعقيدة. ولكن الأوروبـيين تعلمـوا درس التطور فى حين لا يزال المسلمون فى وهمهم القديم.

وقد أوضحنا فى كتابنا "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" أن من الخير للإسلام أن تكف الدولة يدها عن دعوى حمايته، لأنها لن تحقق من هذا إلا شراً مستطيراً.

مدى علمانية الإسلام:

هل معـنى ما تقـدم أن الإسـلام علمـانى كما هو الحـال فى مجتمعـات أوروبا العلمانية.

الإسـلام يتفق مع العلمانية فى الفصل ما بين السـلطة (أو الحكومـة) والـدين. ورغم أن هـذا يمثل شـجا فى حلق الإسـلاميين، فإنه الحقيقة لأن ما ذهبت إليه الآراء الحديثة من الفصل ما بين الـدين والحكومة هو الأمر السـليم الـذى لا يرفضه الإسـلام الذى يقوم أول ما يقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، والـذى يجد قاعدته الحقيقية فى "الإيمان" ولا يمكن أن يفرض الإيمان على القلوب، ولا مكان للإيمـان وسط أوزار السـلطة وطبيعتها المفسـدة وقيامها على الإرهـاب آونة والاصـطناع آونة أخـرى، وإنما مكانه الطبيعى والدائم هو "الأمة".

ولكن للعلمانية جـانب يرفضه الإسـلام تمامـاً ولا علاقة له بالدولـة. ذلك أن العلمانية الأوروبية تعـنى فى بعض الحـالات "الدنيويـة" وهى فيما نـرى الترجمة الـتى تحمل روح العلمانية أى الاقتصـار على الـدنيا الـذى يسـتتبع إغفـال الحيـاة الآخـرة والوقوف منها موقف الجحود أو عدم الاكتراث وهو موقف لا يعنى فى حالة الجحود إلا الكفر باليوم الآخر، وإلى حد ما الكفر بالله بحيث ينطبق على أصحابه ما ذكره القـرآن عن الكافرين. ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الـدُّنْيَا نَمُـوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الـدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾. {24 الجاثية}.. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. {45 الزمر}..

فالعلمانية بمعنى الدنيوية، أى الاقتصار على الحياة الدنيا تخـالف – أو قل – تضـاد الإسلام الذى يؤمن بالحياة الآخرة، ويؤمن بالحساب والعقاب والثواب الخ... ولعل هذه الحقيقة هى ما يجعلنا نقـول إن الإسـلام له طـابع "مـدنى" وأنه يتفق مع العلمانية فى

الفصل ما بين الحكومة والدين، ولكنه يرفض العلمانية عندما يعنى ذلك عدم الاعتراف بالحياة الآخرة ومن باب أولى بالله تعالى..

ولا يخفى على أحد أن القيم الدينية سواء كـانت مسـيحية أو إسـلامية لا تتفق مع "دنيوية" العلمانية، فلا جـدال فى أن هنـاك اختلافا بيّنا بين مجتمع لا يفـرق أفـراده بين المـدنس والمقـدس ولا يسـتهدفون إلا مصـالحهم ويعملـون لتحقيق أقصى درجة من الاستمتاع الطليق، من جانب، وقيم تفرق بين الخير والشر، وتلـزم الإنسـان درجة من الانضباط وتكبح جماح الشـهوات والمطـالب الذاتيـة، والنقطة المهمة هى أنه ما ظلت الأديان تدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وتترك ما لقيصر لقيصـر، فـإن دعوتها تكـون نافعة جدا لإيجاد نوع من التوازن ولكبح جماح الشهوات الضارية، والحبل المطلق على غاربـه، وقد يصـبح من الممكن معايشة "جدليـة" بين العلمانية والأديـان تقـوم على أساس تكامل لا يتحقق إلا بوجود الأمر ونقيضه.

وهنا أيضـاً نجد نوعـاً من التفرقة بين الإسـلام والمسـيحية قد يمثله موقفهما من العلاقـات الجنسـية، فالمسـيحية متـأثرة بفكر ومـزاج القـديس بـول المؤسس العملى للمسـيحية، عـزفت عن هـذه العلاقـات ولم تر فيها إلا شـهوة الجسد واللحم والـدم، ولكنها لما كانت غريزة مستحكمة، فإن العزوف عنها كان يعنى "التحـرق" ولهـذا تقبل القديس بول "التزوج" وضيقه فى أقل الحدود – زوجة واحدة وتحريم الطلاق الخ...

ولكن الإسلام كان أكـثر علمانية فـرأى فيها غريـزة أراد الله بها حفظ النـوع، وأن صاحبها إذا وضعها موضعها المشروع أثيب عليها – كما أنه إذا انحرف بها عوقب عليها. فالقضية فى الإسلام قضية "تنظيم" ومن هذا المنطق ضيق التعـدد الـذى كـان سـائداً بين العرب دون أن يحرمه كلية، ولكنه فى الوقت نفسه، اشترط شـروطاً صـعبة كما جعل عقد الزواج يقوم على إيجاب وقبول ويمكن أن ينتهى إذا فقد ذلك أى عندما يصر الزوج أو الزوجة على الطلاق.

ولعله كان أكثر إتساقا مع الطبيعة البشرية، فقد حرمت المسيحية تعدد الزيجـات والطلاق، لكى تجد نفسـها أمـام تعـدد "العلاقـات" غـير المشـروعة الـتى حلت محل الزيجـات المشــروعة فى المجتمع الإســلامى، ولكى تقر النظم أنواعــاً متعــددة من الطلاق برغم تحريم الكنيسة ذلك.

ويتفق الإسلام مع العلمانية فى أنه يـرفض الدولة الثيولوجية ويجعل الحكم عقـدا سياسياً فكأن الإسـلام حقق العقد الاجتمـاعى الـذى تصـوره جـان جـاك روسـو.. قبله بقرون طويلة.

والاستثناء الوحيد من هـذا هو ما ذهب إليه الشـيعة الـذين رأوا أن الإمامة بـالنص وأعطــــوا أئمتهم حصـــــانة وكونــــوا "مؤسسة دينيــــة" لها مواردها الخاصة تعد هى "المرجعية" وهـذا كله يتنـافى مع ما ذهب إليه جمهـور المسـلمين لأنه يمكن أن يـؤدى إلى الدولة "الثيولوجية" التى يصـعب فى وجودها ظهـور علمانية وقد ظهر التضـاد من وقت بعيد، وكان مما دفع ابن تيميه إلى تأليف كتابه عن السياسة الشـرعية الـرد على ابن المطهر الحلى من الشيعة الأمامية.

ورفض جمهـــور المســـلمين وجمـــاعتهم لما ذهب إليه الشـــيعة هو رفض للدولة الثيولوجية.

على أن الدولة الشيعية نفسها عنـدما ظهـرت فى العصر الحـديث بانتصـار ثـورة الإمام الخمينى تتعرض الآن لتنقيح يخلصها من كثير من رواسـبها القديمة ويـوائم بينها وبين حياة العصر.

وليس الحكم وحده هو الذى يقوم على التعاقد. إن معظم النشاط الاقتصادى يقوم عليه، بل إن الزواج – رغم خصوصيته – هو فى جوهره عقد مدنى يقوم على إيجاب وقبول وكل الشروط الأخرى تكميلية مع استبعاد أن يتم فى كنيسة وعلى يد كاهن.

ويعطى الإسلام الدنيا حظها ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. {32 الأعراف}.. وقد يذكر هنا عزوف الإسلام عن الرهبانية والزهد فى طيبات الحياة التى أحلها الله، ولكن الإسلام لا يقتصر – كالعلمانية على الدنيا وإنما يضم إليها الآخرة ويحاول الجمع بينهما – اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وأعمل لأخرتك كأنك تموت غدا – وليس ثمة تناقض إلا فيما يمكن أن يؤدى إليه الشطط – وهذا الشطط إذا كان فى السلوك فإن الإسلام أبدع آليات لإصلاحه كالتوبة والاستغفار والمقاصة – أى عمل الحسنات التى تجُب السيئات. وإذا كان يمس المجتمع فهناك عقوبات أريد بها الردع، وإذا كانت تدخل فى الظلم والاستغلال فإن الإسلام يقيمها على أساس العدل...

من هذا العرض نرى أن هناك نقاط ائتلاف بين الإسلام والعلمانية خاصة فيما يتعلق بعلمانية الحكم..

ثلاثة جوانب يجب أن توضع فى التقدير

هناك بعد الدراسة الموضوعية لكل من الإسلام والعلمانية ثلاثة جوانب يجب أن توضع فى الاعتبار يختص أولاها بمدى نقاء العلمانية الأوروبية، ويختص الثانى بطبيعة هذه البلاد، أعنى مصر خاصة والمنطقة العربية عامة، ويختص الثالث بنتائج تطبيق العلمانية فى المجتمع الأوربى فى العصر الحديث.

أ. مدى نقاء العلمانية الأوروبية:

تظهر الدراسة العميقة للمجتمع الأوروبى الحديث أن هذا المجتمع رفض الدين السماوى واصطنع دينا أرضياً، وكفر بالله الذى جاءت به المسيحية والإسلام وآمن بآلهة، جاءت بها السينما ونظم الحكم والفنون والرياضة فهو ليس مجتمعاً علمانيا خالصا وحقيقيا، ولكنه علمانى بالنسبة للأديان القديمة، أما موقفه أمام القوى الجديدة الصاعدة فى سمائه فهو موقف المؤمن بها، العابد لها، ذلك أن الإنسان لما لم يكن بطبيعته إلها، ولا خالقا، لنفسه أو لما فى الأرض من أشجار وأنهار ومعادن الخ... وإنما هو متصرف فيها مستخلف عليها، فقد كان لابد وأن يوجد إلها، بعد أن رفض الإله الذى تقدمه له الأديان يستوى فى ذلك المجتمع القديم والمجتمع الحديث ففى اليونان أوجد الشعراء وأبدعوا تلك المنظومة من آلهة "الأوليمب" التى دارت حولها الأساطير والآداب وأورثت أوربا الحديثة أسماءها، وفى الرومان أصبح الأباطرة آلهة، وتولى مجلس الشيوخ "تعيين" من يؤلهه من عظماء الرومان وقبل هذين امتلأت أرض مصر بالآلهة من كل نوع: نيل وشمس، وحيوان الخ... ولم يكن لهذا كله من داع لولا أن الإحساس بالحاجة إلى إله يكاد يكون فطريا ولعل القرآن قد أشار إلى ذلك بطريقته الرمزية. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. {172 الأعراف}..

وهكذا فلم يكد المجتمع الغربى العلمانى يرفض تدخل الدين فى المجتمع حتى فتح الباب على مصراعيه لآلهة من صميم هذا المجتمع مثل ملكات الجمال أو نجوم السينما "عندما مات رودلف فالنتينو انتحرت العديد من النساء فى أربعة أركان العالم

الحـديث". وما أكـثر ما توجد صـور هـؤلاء الأبطـال والبطلات معلقة فى بيـوت الشـبان والشابات أو حتى فى محافظهم، وكذلك أبطال وبطلات الرياضة وكـرة القـدم والتنس الذين يحتازون الملايين لقاء مبارياتهم التى تشغل شاشات التليفزيـون وتسـمر النـاس أمامهم، ويصبح لهم من الشـهرة أكـثر مما للعلمـاء أو الـوزراء أو حـتى رئيس الدولـة، وفى المجتمعات الاشتراكية الـتى ثـارت على هـذه الآلهة "البورجوازيـة" وجد آلهة من نوع جديد، وجد لينين الذى يدفن فى مدفن على غـرار أهـرام المصـريين وحنط مثلهم ويقف الأطفال المساكين فى زمهرير الشتاء صفوفا لكى يلقوا نظـرة عليـه. كما ظفر ستالين، وماوتسى تونج وهوشى منه بمثل هذه المنزلة، وما أكثر الملايين من الشــبان والشابات الصينيين المهوسين بالكتاب الأحمر الذى وضعه ماوتسى تـونج وظفر بما لم تظفر به الأناجيل وما أضخم التماثيل الـتى أقيمت لهـؤلاء الحكـام الطغـاة مما تصـغر أمامها تماثيل رمســيس الثــانى وغــيره من ملــوك الفراعنــة. لقد انتفت فى هــذه المجتمعـات "عبـادة اللـه" الـذى اعتـبر إلها رجعيا أوجدته مظـالم الرأسـمالية وقـامت "عبـادة الفـرد" وهى عبـادة لها إكليروسـها وكهنتهـا، وليس هنـاك فـرق بين المكتب السياسى "البوليتبرو" وكرادلة البابا فى روما أو آيات الله العظمى فى "قم".

هذه كلها صور لا تختلف عن الإيمان الـديني الـذى افـترض أنه ينـاقض العلمانيـة، وقد وجد وازدهر فى كل بيئة علمانية رأسمالية أو اشتراكية ولهذه الآلهة جنتها ونارهــا، والخلاف أنهما فى الحيــاة الــدنيا وليسا فى الآخــرة، وقد ســعد بهــذه الجنة كل آلهة العلمانية من نجوم سينما ورياضة، وملكات جمال.. وحكام يهيمنون على المصــاير كما شقى بنار هذه الآلهة جمـاهير العمـال الـذين عاشـوا فى جحيم الاسـتغلال الرأسـمالى قبل أن يتوصـلوا إلى تكـوين نقابـاتهم كما زجت زبانية الحكـام فى روسـيا الشـيوعية وألمانيا النازية بالجماهير إلى السـجون أو معسـكرات للعمل سـخرة فى ظل ظـروف وبطريقة "جهنمية" أسوأ من سخرة الرومان القدامى.

وهكذا يتضح أن المجتمع الغربى الحـديث إذا كـان قد نبذ المسـيحية وراء ظهـره، فإنه استقبل بوجه آلهة جـدد يملكـون السـعادة والتعاسـة، الجنة والنـار، وتتقـدم إليهم الجماهير بالعبادة، حتى ولو كانوا من إبداع المجتمع نفسه وأخذوا الطـابع الـدنيوى وأن هذا المجتمع أجلس فى حضن العلمانية ديانته الخاصة.

على أن نبذ المجتمع الأوروبى للمســيحية وأخــذه بالعلمانية لا يؤخذ على علاته لســببين: الأول: أن المجتمع الأوروبى لم يخل أبــداً من ظهــور نحل وملل وشــيعة مسيحية مختلفة. إن الرواد الذين استكشفوا أمريكا وسكنوها إنما كانوا من إحدى هذه الشيع التى هاجرت إلى أمريكا فراراً من الاضطهاد ولكى تقيم "صهيون" جديدة، وكان هؤلاء البيوريتان من أشد الشـيع المسـيحية تشـدداً كما أدى انتشـار البروتسـتانتية فى ألمانيا إلى انتعاش المسـيحية وظهـور جماعـات وهيئـات وشـيع دينيـة، بل إلى أحـزاب سياسية مسيحية.

ومن هنا فدعوى نبذ المسيحية والأخذ بالعلمانية يجب أن لا تؤخذ على علاتها.

والسـبب الثـانى وهو الأكـثر تـأثيراً وخطـورة هو أن المسـيحية احتفظت بالعهد القـديم – التـوراة – وجمعته إلى الأناجيـل.. وقد تـأثر المجتمع الأوربى بـالتوراة تـأثراً عميقــاً لأن التــوراة فى حقيقتها "ميثولوجيــا" تحفل بأخبــار حــروب، وآلهــة، وملــوك، ودسـائس ومكايـد، وقصص غرامية وصـور من الابتـذال الجنسى والشـهوى. وكـانت الميثولوجيـا اليونانية قد أثـرت فى النفسـية الأوربيـة، وجعلتها مهيـأة لتقبل الميثولوجيا العبرية. وكان كل شعراء وكتاب وفنـانى، بل وسـادة وقـادة أوربـا، ممن تـأثر بروايـات التوراة ومست شغاف قلـوبهم حوادثها الداميـة، وحروبها وصـراعاتها وغرامياتها الخ... وكان هذا كله فى أصل التعاطف مع الصهيونية والعمل بـأن تحتل الأرض من نهر مصر

إلى النهر الكبير الفرات. كما نصت التـوراة على ذلك كـان لويد جـورج رئيس الـوزارة البريطانى وبلفور كما كان الرئيس ولسن عارفين بهذا الوعد ومتقبلين له فأى علمانية تقيم دولة على أسـاس "وعـد" مزعـوم من إله اليهـود لإبـراهيم ولنسـله عـبر ألـوف السنين.

ونجد آخر تـأثير للميثولوجيا العبرية (كما أطلقنا على التـوراة فى كتابنا الإسـلام دين وأمة وليس دينـاً ودولـة) فى الولايـات المتحـدة ظهـور أصـولية مسـيحية/ يهودية تؤمن أن من الضرورى أن يسكن اليهود فلسطين حتى يتسـنى عـودة السـيد المسـيح وقد كان الرؤساء الأربعة الأخيرون للولايات المتحدة من المؤمنين بهذه النزعـة، وتأييد الولايات المتحدة لإسرائيل وهى الدولة العنصرية الـتى تقـوم على أسـاس ديـنى – هو أكبر دليل على وهن العلمانية الأمريكية.

وفى فرنسا وهى دولة الحريات وبلد الثـورة الفرنسـية لم تـأنف الحكومة من أن تصدر قانونا يمنع أى معالجة لواقعة "المحرقة" النازية التى التهمت ستة ملايين يهودى وحاكمت، وحكمت على روجيه جـارودى وهو مفكر وزعيم بـارز فى المجتمع الفرنسى لأنه اقتحم هذا "التابو" المقدس.

ب. الطبيعة الخاصة للمنطقة العربية:

على دعــــاة العلمانية أن يتعرفــــوا تماما على الطيعة الإيمانية لمصر وللمنطقة العربية – وآثار ذلك على تقبل واستساغة العلمانيـة، ففى هـذه البلاد ظهر الأنبيـاء أولو العزم – وقاموا برسالاتهم التى حملها المؤمنون بها إلى بقية شعوب وبلاد العالم. وفى هذه البلاد – وبوجه خاص مصر – ومنذ أن بدأت تاريخها، كان الـدين هو أبـرز مقومـات المجتمع فيها وعنه انبثق التشـريع، والحكم والأخلاق، والأعـراف، والتقاليـد، وهو الـذى ترك لنا الكرنك والأهرام والمسلات التى تزدان بها ميـادين أوروبا وأمريكـا. وفى العهد المسـيحى أنجبت الإسـكندرية قطـبى العقيـدة المسـيحية آريـوس واثناسـيوس، وكـان الدين هو محور مقاومة مصر القبطية للحكم البـيزنطى الـذى وإن كـان مسـيحيا، فإنه اختلف عن نظرية الكنيسة القبطيـــة، وفى المرحلة الإســـلامية كســـبت مصر – تحت العلم الإسلامى – انتصاراتها على الصليبيين وخلصت بيت المقدس، كما أنقذت الشرق بأسره من الغزو التترى بانتصارها فى معركة عين جالوت.

وفى الحقبة الحديثة – كان شيوخ الأزهر هم قـادة المقاومة الشـعبية ضد نـابليون وكليبر وهم الذين قضوا فعليا سـنة 1805 على الحكم الـتركى عنـدما رفضـوا الـوالى التركى وقاموا بتوليه محمد على الذى تعهد لهم بالحكم بالشرع والعدل وألبسوه خلعه الولاية.

وظل الأزهر منبرا للـدعوة الوطنية فى ثـورة 1919، ومن على منـبره أعلن عبد الناصر استمرار الكفاح غداة مؤامرة 1956، وما أن تحين أوقـات الصـلاة حـتى يقطع التليفزيون إرسـاله ويعـرض الآذان مشـفوعا بحـديث نبـوى وعنـدما يحل رمضـان تأخذ الحياة شكلاً يتفق معه، أما الأعياد فهى أصلا إسلامية (عيد الفطر وعيد الأضحى، ميلاد النبى، السُنة الهجرة الخ...) ويحدث هذا فى ظل حكومات ليس لها توجه إسـلامى، بل لعلها تعزف عنه، ولكنها اضطرت لانتهاجه تحت ضغط الرأى العام وللإبقاء على نفسها واكتساب شعبية.

وقد كان أعلام ورواد النهضة أو – كما يقولون – التنوير – من أبناء الأزهر كالشـيخ رفاعة رافع الطهطاوى – كما لم يكن على مبارك، أو حتى عـرابى – غريبا عن الأزهـر، وقد تيقظ المجتمع المصرى على صيحة جمال الدين الأفغانى وعمله الـدائب فى مصر ثمان سنوات، وأعقبه تلميذه الأزهرى الشيخ محمد عبده وكان تلميذه سعد زغلـول هو

رائد الليبرالية المصرية كما قاد حركة تحرير المرأة قاسم أمين وهو تلميذ محمد عبده أيضاً ومعلوم أن طه حسين وعلى عبد الرازق تعلما فى الأزهر.

ولم يحدث أن عارض أو ندد أحد دعاة حركة التنوير بالإسلام بل إنهم كلهم يعلنون أنهم يكنون أعظم التقدير والاحترام للإسلام وللقرآن وللرسول، لا يشذ عن ذلك أبرز دعاة العلمانية المعاصرين المرحوم فرج فوده، أو نصر أبو زيد، وقد نعجب أن نجد إحسان عبد القدوس صاحب مدرسة روزاليوسف الصحفية – يقول "إننى أعيش كمسلم، إن حياتى الخاصة والعامة تجرى تحت تأثير من وحى الإسلام، فإن أصبت فى تصرفاتى، فلأن الإسلام وفقنى أن أصيب، وأن أخطأت فلأننى عجزت عن اتباع ما يفرضه الإسلام على"[8]. وأن نجد الكاتب الروائى الكبير نجيب محفوظ يقول "أهرام 11/11/94 فى كلمة فى ندوة مشروع حضارى" ورأيى فى اختصار أن المشروع الحضارى يجب أن يقوم فى أساسه على الإسلام وفى تطوره على الحوار مع سائر الحضارات" وسيرد – فى فصل القومية – كلمات الكتاب المسيحيين والأقباط عن الإسلام، كما يلحظ أيضاً أن عتاولة الماركسية عندما ينقدون الاتجاهات الإسلامية فإنهم يقيمون هذا على أساس أنها لا علاقة لها "بصحيح الإسلام" فكأنهم – بطريقة ما – يدافعون عن الإسلام

فهذه الحقيقة الجذرية تخالف مخالفة تامة ما هو معهود فى أوروبا ليس فحسب من عدم اكتراث بالدين – بل أيضاً المهاجمة العنيفة له سواء فى ذلك الشيوعيون الذين رأوه "أفيون الشعوب" أو علماء الاجتماع والتاريخ الذين يشككون حتى فى وجود المسيح نفسه، فضلاً عن التاريخ المغلق للكنيسة.

ودلالة هذه الحقيقة، والتضاد بين ما هو قائم فى المجتمع الأوروبى، مع ما هو قائم فى المجتمع العربى. لا تخفى، ولا يسع أى مفكر أمين أن يتجاهلها.

ج. آثار تطبيق العلمانية فى المجتمع الغربى..

إن بريق التقدم والثراء والبذخ وشيوع الآداب والفنون وارتفاع مستوى الحياة وشتى مظاهر الجمال تعمى عيون كثير من الباحثين عن رؤية الوجه الآخر للصورة، فهذه المجتمعات كلها بدأت نقطة انطلاقها، وحققت تراكمها بسلب ونهب الشرق تستوى فى ذلك بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وهولندا وروسيا القيصرية وألمانيا والولايات المتحدة.

إن بريطانيا وأسبانيا استأصلتا الهنود الحمر الوديعين المسالمين وأبادتهم للاستحواذ على أرضهم، وفرغت هذه الدول أفريقيا من شبابها عندما اقتنصت طوال قرنين من الزمان مائة مليون أفريقى كما تقتنص الحيوانات وزجوا بهم كالحيوانات أيضاً فى سفن بنيت خصيصا لتكون سجونا عائمة، وكان ثلث هذا العدد يهلك خلال الرحلة أو فى السنة الأولى للاستعباد بينما سخر الباقون فى زراعة التبغ وقصب السكر والقطن وكان الرأسماليون قبل أن يظفروا بثروات الشرق وتسخير أبنائه قد استغلوا النساء والأطفال من شعوبهم فى مصانع الغزل والنسيج ومناجم الفحم والحديد ثلاثة أجيال متوالية قبل أن يستطيع العمال تكوين نقابات تحميهم من هذا الاستغلال.

وقامت الحروب بين الدول الأوروبية بعضها بعضا، وضمت حربين عالميين 14-19 و39-45 جرت أوروبا شعوب العالم إليها وسالت فيها الدماء أنهارا. وقدر القتلى فيهما بأربعين مليونا فضلاً عما حدث من خراب ودمار.

---

8 **(8) أنظر عدد صباح الخير – 1 رجب سنة 1411 – 17/1/91 ص9.**

وفى الفترة المعاصرة تفشت فى المجتمعات الغربية الأزمات الاجتماعية وأخذت شـكلاً وبائيا مثل الجريمة المنظمة الـتى تمد آفاقها لمجـالات جديـدة لم تكن مألوفة كـدعارة الأطفـال والشـذوذ الجنسى وإشـاعة المخـدرات، ومثل الفسـاد السياسـى، وهيمنة الصـناعات الكـبرى والأغنيـاء على الانتخابـات، والفسـاد الاقتصـادى وسـيطرة أجهزة الإعلام وتأثيرها العميق على الشباب وهيمنة الشركات الكبرى الدولية – عـابرة القارات على الاقتصاد فى بلادها، وخارج بلادهـا، والسـلطات فى الغـرب تقف عـاجزة أمام هذا الجموح والانحراف لأنه يستظل بمظلة الحرية، ولأن السـلطات أصـبحت هى نفسها أسـيرة لهـذه القـوى الـتى اسـتخدمت الرشـوة والضـغوط للتـأثير على القـادة وأجهزة الإعلام للتأثير على الجمهور.

وقد تصور بعض المفكرين العرب المتأثرين بالحضارة الأوروبية أن العلمانية تجمع والأديان تفرق، وأن العلمانية تسامح والأديان تعصب وهذا خطأ فـادح. فالعلمانية أدعى للتفـرق من الأديـان لأنها تلقى الحبل على غاربه لكل فـرد أو مجموعة لتقيم كيانا لها وفى أمريكا يمكن لأى دجال أو معتوه أن يجد أنصاراً وأتباعا حتى عنـدما تكـون دعوته القتل والانتحـار فالتعددية تصل إلى أقصى مـدى لها فى مجتمع العلمانية بينما الأديـان حتى لو كانت تفرق فإنها محدودة فلا يوجد فى العالم كله سوى خمسة أديان كبرى.

وبالنسبة للدين فإن ما يحـدث هو أن تكـون الأغلبية السـاحقة فى بلد ما من دين واحـد، فلا يكـون هنـاك تفرقـة، لأن من المسـلم به فى النظم الديمقراطية أن يكـون القرار فى النهاية للأغلبية وعلى الأقلية الانصياع له، وقد وقف الإسلام فى وجه جمـوح الأغلبية وأن تحيف على حقوق الأقليات وكفل لها حرية العقيـدة، وحرية أن تتبع نظمها الخاصة فى الزواج والطلاق والمواريث الخ... وحرم على الأغلبية أن تمسها فأصـبحت هذه الأقليات محمية بـالقرآن وهـذا ما يطلق عليه فى الفقه الإسـلامى.. "أهل الذمـة" وهو تعبير تضيق به بعض الأقليات لأنها تشم منه رائحة تفرقة وتتنسم منه نسمة تمييز فى حين أنه فى حقيقة الحـال حماية لهم واعـتراف بالحقيقة الواقعة الـتى يريـدون – وهيهات – أن يهربوا منها وهى أنهم أقليه. فلو خلصوا من أن يكونوا أهل الذمة يحميهم القـرآن الـذى لا يسـتطيع المسـلمون مخالفته – إلى العلمانية وحكم الأغلبية الجـائرة لكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ولوقع عليهم ما يقع على الأقليـات الإسـلامية فى الـدول الأوروبية الـتى تـدعى العلمانية ولكنها تحكم بالشـريعة المسـيحية فى قضـايا الـزواج والطلاق والمـيراث وتفـرض هـذا الحكم قسـراً على الأقليـات الإسـلامية مع مخالفته لعقيدة هـذه الأقليـات وإن كـان تعبـير أهل الذمة هو من مخلفـات عهد قـديم انتهى وطويت مخلفاته، شأنها شأن الجزية، والأنفال والرق الخ...

فإذا كان فى استلهام الأديان تفرقة بين البشر فستكون تفرقه للعـالم كله ما بين خمسة أديان، وبالنسـبة للإسـلام فإنه يقـرر ويؤكد أن علاقة المسـلمين بغـيرهم علاقة مودة ومسالمة، وهو يعترف بكل الرسل ولا يفرق بين أحد منهم.

أما تهمة التعصب وإلصـاقها بالأديـان، فـإن الإسـلام آخر من يمكن أن تلصق بـــه. والتعصب الحقيقى والعميق هو التعصب العنصــــرى وهو أمر اتصف به المجتمع الأوروبى من أيـام اليونـان والرومـان حـتى أيـام الاسـتعمار وحـتى الفـترة المعاصــرة وآخر صــورة له هو تعصب الصــرب إزاء المســلمين فى ســراييفو فهــذا التعصب ســواء كــان مصــدره الكنيسة أو العــرف هو ما نجــده فى أوروبــا، وهو سر سكوتها عليه رغم ما اتصف به من وحشية.

لقد كان ما تعرضت له الحضارة الأوروبية الحديثة من أزمات وما وصلت إليه فيها عوامل التـدهور قمينا بـأن يعصف بـأى حضـارة أخـرى، وما أنقذ الحضـارة الأوربية من مصـــير الحضـــارة الرومانية المنـــدثرة – هو أن الحرية والعلم قاوما عوامل التحلل

والانهيـار ومكناها من البقـاء والصـمود ولكن هـذا تم بثمن باهظ قد لا تسـتطيع دفعه دائمـــا. وهو ما يوضح حاجتها الماسة إلى القيم الدينية الـــتى تعصـــمها من التـــدهور والسـقوط، ولا يمكن أن تحل محلها قيم أخــرى، لأن للقيم الدينية وحـدها من المنزلة ومن الصفة الموضوعية والقداسة ما يعطيها قوة ليست لغيرها.

وفى النهاية نجد أنفسنا أمـام مفارقـة: ففى أوروبـا، حيث المسـيحية الـتى تضـاد قيمها القيم العلمانيـــة، حـــدث نـــوع من المعايشة الجدلية بين العلمانية الـــتى تســـود المجتمع، والكنيسة التى تحاول جاهدة أن تكبح الجماح، ولكن دون أن تحقق هذا تماماً لأن قانون الحركة والانطلاق أغلب وأقـوى من قـانون التوقف والـتريث ولم يكن أمـام الكنيسة إلا أن ترضى بقدرها، وتقبلت الكنيسة ذلك لأنها خلال الألف عام الـتى قضـتها على التربة الأوروبية وبالذات "روما" تشربت القيم الأوروبية شـيئاً فشـيئاً حـتى انتهى بها الأمر أن تحمل اسم "الرومانيـة" وأن تتخذ من روما مقـرا لهـا، كما لو كـانت وريثة الحضارة الرومانية.

وفى المجتمع الإسلامى الذى تتقارب فيه القيم الإسلامية من العلمانية حـــتى وإن تعارضت فى بعض الأصول يحدث شد وجذب وصراع وتقاتل، نتيجة لأن كل فريق يريد أن يستحوذ على الصدارة، ولا يؤمن بمعايشة جدلية تكاملية "لنا الصـدر دون العـالمين أو القـبر" ولا يمكن للعـالم الإسـلامى أن يعيش هـذا الحاضر الشـكس طـويلاً، ولا هو يملك عـدة قـرون من الصـراع بين الـدين والعلمانية كـالتى حـدثت فى أوروبا طـوال القـرون الوسـطى، وما نتوقعه بحكم دروس التـاريخ أن تنتهى هـذه المماحكة بظهـور صورة شرقية من العلمانية تحتفظ بالقيم الإسلامية وتستلهمها، وبهـذا يحـدث نـوع من التوازن ما بين عناصر الحفاظ والثبات وقوى التقدم والتطور.

ويفترض أن يرضى الذين يمثلون "الدعوة الإسلامية" بهـذه القسـمة، وليست هى بالقسمة الضيزى، وأن يصرفوا النظر تماماً عن إعـادة عقـارب السـاعة إلى الـوراء أو إحياء الماضى كما كان.. فليس هذا ممكنا... وقد لا يكون مطلوبا.

إن المعضلة التى تواجه الفكر الحـديث هى كيف يمكن إحيـاء القيم الدينية سـواء كانت إسلامية أو مسيحية – وتعميقها فى النفوس بحيث تكون كابحة للشذوذ والسرف والانحراف حاثة على الخير والقصد والاستقامة دون إيجاد "آلية" تقـوم بـذلك ؟ لأننا لو أوجدنا هذه الآلية لأصـبحت هى "الكنيسـة" أو المؤسسة الدينيـة، ولظهر رجـال الـدين المسـيحى وعلمـاء الـدين الإسـلامى ولاحتكـروا الـدعوات الدينية – أو على أقل تقـدير فرضوا وصاية عليها وهو أمر مرفوض تماماً.

إن التعقيد والصـعوبة الـتى تكتنف التوصل إلى الحل يجب أن لا تحـول دون بـذل كل الجهود فى سبيل ذلك فليس الحل بالمسـتحيل، فى حين أن وجـوده أمر لا منـاص منه لأنه هو الذى سيجعل من قضية العلمانية قضية حضارية وليست مؤسساتية، تنبثق عن المجتمـع، وليس عن الدولة ويفسح المجـال لوجـود علمانية إسـلامية فيها تحـرر العلمانية وعقلانيتها مع الاحتفاظ بـرأس ومحـور العقيـدة وهو الإيمـان بالله وما يشـعه ذلك من إيمان بالرسل والقيم الحضارية الإسلامية.

الفصل الثانى
الموقف من القومية

بـرزت "القوميـة" على سـاحة الفكر العـربى ورزقت عوامل معينة دفعتها إلى الصدارة بحيث ارتأى البعض أنها البديلة عن اتجاهين يثيران الحساسية هما الاشـتراكية والإسـلامية، ولكن القومية عنـدما قـدر لها أن تطبق بالفعل لم تكن أسـعد حظـاً من التجربتين: الاشتراكية والإسلامية.

نشأة القومية:

ولكى نفهم "القوميـــــة" فهما شــــاملاً، وعميقا علينا أن نلم بأبعادها وأعماقها والعوامل التى أدت إلى ظهورها وما هى مواطن القوة والضعف فيها.

وفيما يلى بعض النقاط التى قد تجلى ذلك...

أولاً: إن القومية لم تكن دائماً النظام المطبق فى العـالم الأوربى أو الشـرقى، إنها تمثل مرحلة معينة وتظل ما بقيت الظـــروف الموضـــوعية لهـــذه المرحلـــة. وقد سـبقتها نظم ذات طـابع عـالمى كالهيلينية وقت الإسـكندر أو السـلام الرومـانى عصر سيادة الرومان ثم العالمية المسيحية فـترة هيمنة البـابوات والعالمية الإسـلامية فـترة الخلافة وفى هـذه العهـود كلها لم يكن للقومية وجـود، ويمكن أن نتصـور مسـتقبلاً لا توجد فيه القومية أو تندرج فى إطار كيانات دولية ذات طابع عالمى فيظهر كيان دولى عالمى رأسمالى.. وآخر اشـتراكى أو تتوحد أوربا فى "اتحـاد الولايـات الأوربية الخ..."، وهو ما حدث بالفعل فى الفترة المعاصرة.

ولم تظهر القومية فى أوربا إلا مع ظهور الاقتصاد الرأسمالى وتوسـيعه للسـوق من مستوى القرية إلى المسـتوى القـومى وقضـائه على النظـام الإقطـاعى بأواصـره التقليدية والقيود التى وضـعتها الطوائـف، وظهـور الدولة والسـلطة المركزية وهيمنتها على مختلف أطراف البلاد ومرافقها وإذابتها جميعا فى بوتقة واحـدة. كما اقـترنت فى بعض الحالات بنيل الاستقلال من محتل أو استعادة الحدود من مغتصب.

وبالنسـبة للشـرق، فقد بـدأت فكـرة القومية بداية مشـبوهة بل مشـؤومة على أيدى رجال "الاتحاد والـترقى" فى تركيا فى مسـتهل القـرن العشـرين ثم ظهـرت فى المنــاطق العربية كـــرد فعل وليس كفعل أصــيل بمعــنى أنها لم تكن نتيجة توسع فى السـوق أو ظهـور اقتصـاد رأسـمالى أو سـلطة مركزيـة. ولكن كموقف اضـطرت إليه المناطق العربية إزاء سياسة الاتحاد والـترقى. وقد يقـال إن هـذا الموقف يمثل تحـدياً والتحدى هو أحد المنطلقات المعروفة لظهور القوميات فالقومية الألمانية مثلاً ظهرت كصــورة من التحـــدى للغـــزو الفرنسى واحتلال نـــابليون.. ولكن الحقيقة أن القومية العربية لم تأخذ موقف التحـدى الإرادى والإيجـابى، لأن أحـرار العـرب كـانوا حـتى آخر

لحظة على استعداد للوقـوف مع تركيا فى الحـرب، والمجموعة الوحيـدة الـتى أرادت التحرر هى الشـرذمة المارونية الـتى اتصـلت بفرنسا لتسـتظل بحمايتهـا، ولكن رجـال الاتحاد والترقى الذين أعماهم التعصب لم يتجاوبوا مع أحرار العـرب، فمنطلق القومية العربية لم يكن التحـــدى الإرادى الإيجــابى ولا هو نتيجة لعوامل موضــوعية من توسع السوق الخ... ولكن من منطلق الضـرورة والظـروف الطارئـة. الأمر الـذى قضى بـأن تصــطحب نقطة الانطلاق العملى بمحالفة بريطانيا والاعتمـــاد عليها رغم أن أطماعها الاسـتعمارية وتآمرها مع فرنسا لم يكن مجهــولاً. وليس هنــاك ما هو أتعس من هــذه البداية التى لا يمكن أن تفخر بها أى قومية وكـأن هـذه الـولادة التعسة أورثت القومية العربية بعض خصائصـها وجعلتها تظهر فى كل منعطف من المنعطفـات أو حيث تـدبر مــؤامرة.. أو تــراد هيمنة فتــداولها كــالكرة عبد الناصر فى مصر والبعث فى ســوريا والعراق وأضفى عليها الناعقون بها ستار العلمانية المزعوم.

ثانياً: ليست النعرة القومية هى أفضل أو أسمى ما يمكن أن تقـوم عليه النظم السياسية لأنها تتضمن – مهما اتسعت – محـددات الجنس والـدم والأرض واللغة الخ... وهى بطبيعتها محدودة فإذا حاولت الاتساع فيكـون ذلك على حسـاب فعالية محـدداتها ومن ثم فإنها تهزم نفسها بنفسها وإذا حاولت تعزيز نفسها فسيكون ذلك على حسـاب كل المعـــانى والقيم الإنســـانية والعالمية كما هو الحـــال فى القوميـــات المحكمة والمغلقة.. القومية الجرمانية الآرية كما وضـعها جوبينو وتشـمبرلن وهتلـر.. أو القومية الإسـرائيلية الــتى طبقها بن جوريــون وغلاة إســرائيل، وقد اتفقت الــدعوات الدينية والشيوعية على استهجان القومية فرأى فيها ماركس وانجلز "الأنانية بالجملة" واعتبرا فى المانيفسـتو الشـيوعى أن الصـفة الـتى تمـيز الشـيوعى عن غـيره هى أنه يقـدم المصــــلحة البروليتارية العالمية على المصــــلحة القوميــــة. وظل هـــذا هو الخط "الأرثوذكسى" للشيوعية الذى تمسك به لينين وروزا لوكسـمبرج فى مواجهة أقطـاب الدولية الثانية الـذين دخلـوا الحـرب العالمية الأولى مع حكومـاتهم.. واسـتبعد الإسـلام النزعة القومية حـتى عنـدما تـأتى من العـرب، وقضت على القومية إلى الأبد كلمـات محمد الخالدة "دعوها (أى العصبية) فإنها منتنة". "لينتهين أقوام يفخرون بآبائهم الـذين ماتوا. إنما هم أهون على الله من الجعل الذى يدهده الخرء بأنفه. إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى. النـاس كلهم لآدم وآدم من تراب" وبالمثل فإن المعيار بالنسبة للمسيحية فى الانتماء هو الانتماء إلى كنيســة، وليس الإقامة على قطعة معينة من الأرض.. وقد "دشـنت" – ومعـذرة عن التعبـير – القومية البريطانية نفسها بدم أفضل مفكر مسـيحى فى بريطانيا وهو "تومـاس مـور" مؤلف اليوتوبيا الذى رفض أن يوافق الملك هنرى الثامن على فصل كنيسة إنجلترا من البابوية.. كما ضحت القومية الفرنسية التى أبرزتها الثـورة الفرنسـية بالجمـاهير الـتى كانت وقودها وجندها لحساب مصالح البرجوازية الصاعدة. كما يمكن تعـرف ذلـك. من مطالعة بيان "حقوق الإنسان والمـواطن" وكـذلك قـانون نـابليون الـذى بلـور مصـلحة الطبقة البورجوازية على حساب مصالح العمال.

وهكذا فإن القومية لم تحقق مطالب الجماهير. ولا آمال الفلاسفة وكانت فى الحقيقة صنيعة السياسيين وأداة البورجوازية.

وقد يوضح ذلك على الصعيد العربي أنه رغم ذلك الحديث الطويل العريض عن القومية العربية والوطن العربى الخ... إلا أننا نجد كل دولة عربية متمسكة بجنسيتها الخاصة مغلقة حدودها فى وجه الدول العربية الأخرى، وبعضها لا يزال يتمسك بتأشيرة الدخول المستعصية، والأسوار الجمركية عالية تحول دون دخول السلع والمنتجات، وهناك تفرقه فى المعاملة ما بين أبناء الوطن العربى الواحد، واعتزاز بالجنسية اعتزازاً يماثل – فى بعض الحالات – اعتزاز الألمانى بالجنس الآرى.. فأين أثر القومية العربية.. وهل هى حبر على ورق أو شعار للمزايدة ؟ إن هذه القيود والتفرقات لم تكن موجودة فى العهد الإسلامى وكان الطالب والتاجر والحاج يخترق العالم الإسلامى شرقاً وغرباً شمالاً وجنوبا لا يجد حظراً أو قيداً ولا يحس غربة.. وحتى الفترة التى سبقت مباشرة استشراء القومية لاحظ أحد الكتاب أن حكومة الملك عبد العزيز آل سعود الأولى ضمت بين الوزراء عبد الله الدملوجى (عراقى) وفؤاد حمزة (فلسطينى) وحافظ وهبه (مصرى) ويوسف ياسين (سورى) ورشدى ملحمى (فلسطينى) وخالد الكركنى (ليبى).

ونقل الكاتب عن أنيس الصايغ...

"كان ثلثا الوزراء فى السنوات العشر الأولى فى شرق الأردن من خارج الإمارة. أما رؤساء وزارتها فكانوا كلهم من خارجها من سوريا وفلسطين أما موظفو الحكومة فقد ظل ثلثهم من خارج الإمارة إلى أكثر من عشرين سنة"[9].

ثالثاً: إن تكوين القوميات فى أوربا يجب أن لا يتخذ سابقة يبنى عليها تكوين القوميات العربية. إن القوميات الأوربية تكونت تكوينا تاريخيا اقتصاديا وسياسياً واجتازت قرونا فى سبيل ذلك فضلاً عن أن لها أوضاعها الخاصة التى لا يشترط – ضرورة – أن تتكرر فى المجتمعات العربية وقد رأينا أن القومية العربية لم تكن نتيجة تخمر فكرى أو تطور اقتصادى.. ولكنها كانت رد فعل اضطرارى للسياسة التركية ومن هنا فإن الأمر فى القومية العربية لم يقتصر على عدم التكوين التاريخى الأصيل بل أيضاً اقترن بملابسة كانت هى السبب فى محالفة المستعمر كما أوضحنا.

ومع تسليمنا بأن هناك مبادئ أساسية تنتظم تطور المجتمع الإنسانى وأن هذه المبادئ لا تختلف فى دولة عنها فى دولة، إلا أن من المسلم به أيضاً أنه داخل هذا الإطار الواسع الفضفاض توجد عوامل خاصة وذاتية لها حساباتها وانعكاساتها على المبادئ الأساسية والرئيسية. وهذه العوامل ليست مبادئ مجردة ولا هى حصيلة حسابية.. إنما هى نتائج لتفاعل عوامل إنسانية واقتصادية وجدت فى الدول الأوربية وليس شرطا أن تتماثل فى الشرق والغرب وكمثال عارض فحسب فإن الإسلام ظهر بعد المسيحية بستة قرون أى أنه أكثر حداثة وجدة عنها بهذه المدة الطويلة، وهذه

---

[9] **(9) كتاب القومية والغزو الفكرى للأستاذ جلال كشك ص39 .**

الواقعة لابد وأن تكـون لها انعكاسـاتها فى اختلاف التطـور وسـياقه الخ... فى الشـرق عنه فى الغرب.

بل إن مدلول ومفهوم الألفاظ والتعبيرات قد يختلف فى الشرق عنه فى الغرب فكلمة "دين" فى العالم العربى تثير متـداعيات معينة مجيـدة وشـاملة لا تثيرها الكلمة نفسها فى العالم الأوربى الذى رزح تحت نير البابوات.

رابعاً: إن الأمة العربية الحديثة لم تتكون إلا بفضل الإسـلام ولم يكن لها وجـود أو شأن قبله. فقبل الإسلام لم يكن عرب الجزيـرة إلا قبائل متفرقة يفخر بعضـها على بعض بشعر شاعر.. أو كرم كـريم أو سـبق جـواد. وكـان عـرب المدينة تحت الوصـاية الفكرية لليهود. أما مصر والعراق وسوريا فكانت كلها مسـتعمرات للفـرس والرومـان تختلف ألسنتها ومصالحها باختلاف تبعياتها..

جاء الإسلام فأوجد إيجاداً الأمة العربية الحديثـة، كـان هو شـهادة ميلادها ونقطة انطلاقها وهو الذى حررها من التبعية ومنحها الحرية والاستقلال ومحى كل فروق اللغة والجنس التى كانت تفرق بينهـا، ثم وضع فى يـدها السـيف والكتـاب والمـيزان لتقـوم برسالة إنسانية، عالمية عظمى لا يمكن القيام بها إلا بهذه الثلاثة.

وعنـدما يصـطنع حـزب عـربى اسم "البعث" فالـذى يرتسم بداهة فى ذهن كل عربى سِّوى رشيد.. هو البعث الإسلامى.. لأنه ليس هناك بعث يمكن أن ينتظم العـرب جميعـاً إلا بعث يقـوم على الإسـلام الـذى أوجد بـالمعنى التـاريخى والحضـارى الأمة العربية. وليس هناك إلا المعتوهين والمغرضين والمصـابين بعمى القلـوب من يصـرف هــذا البعث إلى "الثــورة[10] العربية الــتى انفجــرت ســنة 1916 لتحرير الأمة العربية وتوحيدها" كما يقول حزب البعث وهى الثورة التى تزعمها الشـريف حسـين المخـدوع وقادها الكولونيل "لورنس" ضابط المخابرات ومـولت بـأموال بريطانيـا، واسـتثنت من إطار الـوطن العـربى والقومية العربية مصر والشـمال الأفـريقى وقد كـان فى شـىء واحد من هذا ما يجعل حزب البعث يبعد عنها، لولا أنه شر منها.

خامسـاً: إن دور الإسـلام فى القومية العربية لا يمكن تشـبيهه أو مقارنته بـأى دين آخر للأسباب الآتية:

1- أن الرابطة الإسـلامية كـانت من القـوة بحيث زودت الـوطن الـذى يعد بيضة الإسلام وأرضه الأصلية ومقر الكعبة والروضة على ممر العصور بقيادة بلغت الذروة فى الحرب والسلم والعلم والفن وإن لم يكونوا عربا وظل ذلك من طـارق بن زيـاد البربرى إلى جوهر الصقلى إلى صـلاح الـدين الكـردى إلى بيـبرس القفقاسى حـتى جمـال الـدين الأفغـانى فضـلاً عن تلك الكتيبة الفريـدة من كتـاب وعلمـاء خراسـان والهند وما وراء النهر حـتى مشـارف سـيبريا المتجمـدة وزودوا الفكر العلمى بروائع قرائحهم، وكتبوها بالعربية احتسابا وتقربا وتشرفاً بلغة القرآن.

[10] **(10) المادة 9 من دستور حزب البعث .**

2- أن الخلافة الإسلامية والشريعة الإسلامية ظلت قوام الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للوطن العربى من ظهور الإسلام حتى العقد الأول للقرن العشرين أى ثلاثة عشر قرنا متوالية ولا تزال حية بل متقدة فى النفوس رغم التطبيق السقيم لها وأن القوى الخارجية أزالتها عن مقاعد الحكم.

3- أن اللغة العربية وهى الدعام الأعظم للقومية العربية هى بنت الإسلام قرآنا وحديثا ولا يمكن فصلها عن الإسلام وقد قام القرآن الكريم بالحفاظ على القومية العربية عندما أوجد العربية القياسية التى يكتب بها العرب على اختلاف أقطارهم ويتحدثون بها عندما تجمعهم المحافل ولولا القرآن لمزقت اللهجات المحلية اللغة العربية، ولتطورت هذه اللهجات مع الزمن إلى لغات كما حدث بالنسبة للغات الأوربية التى تفرعت من اللاتينية.. ولأصبحت حواجز دون القومية ودون الوحدة.. فليعرف دعاة القومية ذلك وليضعوا القرآن نصب أعينهم حتى لا تزل أقدامهم وتذهب بهم إلى الإقليمية الضيقة التى لا تساوى فى عصر الكيانات الكبيرة شروى نقير، وحتى لا تتلعثم ألسنتهم فلا يستطيعون حوارا أو كلاما مع بقية العرب.

سادساً: أن كل حركات التحرر من الاستعمار فى العصر الحديث التى أسفرت فيما بعد عن استقلال الدول العربية وظهور قومياتها لم يقم بها دعاة القومية، ولكنها قامت تحت رايات الإسلام وباسم الجهاد وهى التى ظفرت للدول العربية باستقلالها، سواء كان ذلك بالنسبة للسودان التى وضع "المهدى" ودعوته أسمها على خريطة الدول المستقلة. أو ليبيا التى قاومت الغزو الليبى فيها الطريقة السنوسية وبطلها عمر المختار، أو الجزائر التى قاد كفاحها عبد القادر الجزائرى، ثم عبد الحميد بن باديس أو المغرب (الريف) التى قهر فيها عبد الكريم الخطابى الجيوش الأسبانية وفى مصر كان شيوخ الأزهر هم الذين قادوا الثورة على نابليون ثم هم الذين جعلوا من محمد على واليا وألبسوه خلعه الولاية متحدّين فى ذلك السلطان التركى ثم كانت دعوة جمال الدين الأفغانى هى بداية اليقظة الحديثة فى مصر.

سابعاً: أن التطور التاريخى للأمة العربية التى ولدت على يدى الإسلام وشبت فى رعايته استمدت منه اللغة والتشريع والعادات والتقاليد والذى طوى كل ما كان قبل الإسلام وجعله فى منطقة "اللاشعور التاريخى" للأمة العربية، هذا التطور جعل الإسلام هو ضمير الأمة العربية وكيانها ورمز عزتها وكرامتها وإضافتها إلى حضارة العالم وربط مصيرها بمصيره وأصبح الابتعاد عنه نوعاً من الضياع، والتيه، واليتم الروحى، ولا يعنى فصل العروبة عن الإسلام إلا أن تصبح العروبة جثة.. أو صدفة فارغة من لؤلوتها وسيجد الإسلام ناساً آخرين فى أقصى الأرض يعتنقونه ويؤمنون به حتى وإن لم يتكلموا العربية.. ولكن العروبة لن تجد إسلاماً آخر.. ولن تجد محمداً آخر يوحدها على أكمل نسق.. وإذا كان الإسلام محتاجاً للعرب مرة فإن العرب محتاجون للإسلام ألف مرة.. فلا يمنن أحد على الإسلام إسلامه لأن الإسلام أعطاه ما يصغر أمامه كل عطاء.

إن هذه الحقيقة لم تفت المفكرين المنصفين من غـير المسـلمين، لأنها من بـاب الوقائع التاريخية، وليست من باب الآراء والافتراضـات الجدليـة، ولكن الجهالة الأوربية التى تأصلت فى أوربا منذ الحـروب الصـليبية حـالت دون أن يعرفها معظم المفكـرين الأوروبيين وإن ألم بها العرب المسـيحيون فقد اعـترف بها المنصـفون أولا لأنها واقعة وثانيا لأنه وإن فاتهم الانتماء للعقيدة الإسـلامية لمواصـفات اجتماعية فـإنهم يسـعدون بعدالة الإسـلام قـدر ما يطربـون لإعجـاز القـرآن. وهـذا هو الـدكتور قسـطنطين زريق الأسـتاذ بالجامعة الأمريكية فى بـيروت يتحـدث فى كتابه الـوعى القـومى عن القومية العربية والدين بمناسـبة ذكـرى مولد "النـبى العـربى الكـريم" فـيرد على التسـاؤل ما علاقة النبى محمد بالقومية العربية وما رسالته إليها.

"النبى محمد هو أولا، نبى الإسلام عليه أنزل هذا الدين الكـريم وبواسـطته انتشر فى مشارق الأرض ومغاربها وقد بلغ أثر هذا الدين كل ناحية من نواحى ثقافتنا العربية فلسنا نسـتطيع اليـوم أن نفهم تراثنا العـربى القـديم، سـواء فى الفلسـفة أو العلم أو الفن إلا بعد درس عميق لنصــوص الــدين الإسـلامى وأحكامــه، وتفهم صـحيح لروحه ونظامه. وهذا التراث العـربى قسم من ثقافتنا الحاضـرة، بل هو أساسـها الـذى تقـوم عليه وباطل ما ينـادى به البعض من أن نـرمى بهـذا الـتراث القـديم جانبـاً ونقبل على الثقافة الغربية الجديـدة، فـالتراث العـربى جـزء منها – شـئنا أم أبينا – وهو فـوق ذلك ميزتنا التى بها ننفرد بين الأمم، وقد أوتى من الخصب والقوة والجمـال ما يـدفعنا إلى الحرص عليه ومفاخرة الناس كلهم بـه. ولهـذا وجب على كل عـربى، من أى طائفة أو نحلة يهتم بثقافته الماضية وببعثها الجديد به – وهـذا الاهتمـام هو فى طليعة الواجبـات التى تفرضها عليه قوميته – أن يقدم على درس الإسلام وتفهم حقيقته ويقدس ذكـرى النبى العظيم الذى أنزل الإسلام عليه.

والنبى محمد هو، من ناحية ثانيـة، موحد العـرب وجـامع شـملهم. بعث إليهم وهم أشد ما يكونون تفرقة وخلافا يتحاسـدون ويتنـاحرون ويحـارب بعضـهم بعضـاً لا رابطة قوية تجمعهم ولا شعار يوحدهم ويوفق بين قلوبهم، فنفخ فيهم من روحه المحيية، فإذا هذه القبائل المتنافرة قد تآلفت، وإذا هـذه الجمـوع المتباعـدة قد تقـاربت وإذا الجميع كتلة واحــدة قد صــهرت فى بوتقة الإيمــان، ففاضت على العــالم تبعث فيه القــوة والنشاط وتنشر عليه الحضارة والعمران"[11].

وهذا هو الأستاذ أمين نخلة يقول:

"لا حرج فى التمسك بالقومية والكلف باللغة، كما لا حـرج فى الـدين، تتلاقى ملتا العـرب، (ملة القـرآن)، و (ملة الإنجيـل)، حـتى كـأن الإسـلام إسـلامان، واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة.

أو كأنما العرب جميعاً مسلمون حينما يكون الإسلام هكذا: هدى بمحمد، وتمسـكا بقوميته، وكلفا بلغتـه، وأن لغـير المسـلم فى أرض العـرب أن لا يـدين "بـدين ابن عبد

[11] **(11) الوعى القومى للدكتور قسطنطين زريق ص128 – 129 (الطبعة الثانية) .**

الله" وأن يخلب لبه مثلاً كتاب "لابن مريم" كل حرف منه يقطر رفقا، وصليب قعـدت به دنيا وقامت به دنيا.

وأما أن يكون فينا عربى، من لحمنا ودمنا، ثم يغدو لا يمت إلى محمد بعصبية، ولا إلى لغة محمد وقومية محمد، فهو ضيف ثقيل علينا، غريب الوجه بيننا.

ويا محمد – يمينا بدينى، دين "ابن مريم" وبخشبات صـليبه أننا فى هـذا الحى من العـرب "أى لبنـان" نتطلع إليك من شـبابيك البيعـة، فعقولنا فى الإنجيـل، وعيوننا فى القرآن"..

وثمة مثـال آخـر، ليس أقل روعة ولا شـاعرية من المثـال السـابق، هو الأديب العـربى (اللبنـانى المـارونى) الكبـير الأسـتاذ مـارون عبـود فلم يكتف بتأكيد عروبته والاعتزاز بالتاريخ العربى الإسلامى، قولاً، بل أكده فعلاً فى سلوك الحيـاة فسـمى ابنه البكر محمداً، وكان أحب شىء إليه أن يكنى "بأبى محمـد" وكـان قد نظم قطعة أدبية طريفة يوم ولد ابنه محمد فقال:

عشت يا ابنى، عشت يا خير صبى ولدته أمه فى رجـب
أمــه مــا ولدتـــه مسلما و مسيحيا ولكن عربى
فهتفنـــا واسمه محـــــمد أيها التاريخ لا تستغرب

ولقد أكد كثير من شعراء العرب المسيحيين هذا المعـنى، أى الاعـتزاز بالإسـلام ورسول الإسلام باعتبار ذلك جزءاً من قوميتهم العربية وجـزءاً من تـاريخهم الـذى إليه ينتسبون. ويقف فى الطليعة بين هؤلاء الشاعر القـروى الأسـتاذ رشـيد الخـورى. ففى ديوانه الضخم عشرات المواقف العربية الرائعة نجتزئ منها قوله فى قصيدة.

أنا العروبـة لـى فى كـل مملكة إنجيـل حـب ولى قـرآن أنـعام
سل عهد شامى وبغـدادى وأندلسى عن عمق فلسفتى من عدل أحكامى
شغلت قلبى بحب المصطفى وغدت عروبـتى مثلى الأعلـى وإسلامى

ويقول فى قصيدة أخرى معتزاً بأمجاد العروبة وأبطالها.

أتجف أوراق العروبة فى ربى لبنـان وهـى نضيرة لم تذبـل ؟
أتريد أعظم من أبى بكر ومن عمر إذا انتسب الكرام ومن على ؟

ويقول فى محل آخر: "ما كنت، حـتى قبل أن أولـد، إلا عربيـاً صـميماً. ولكن لم تكن لى فكرة سوية عن الرسول العربى ولا قرأت كتابه وحديثه حتى أتانى الله فضـله على يد.. فماطت عن بصيرتى حجاباً من الجهل كثيفاً، وحلقت بى إلى سماء من تراثنا الروحى لم تكن خطـرت لى على بـال. وأى حر يعشق الحق حيث وجـده، وأديب يهيم بالحكمة وساحر البيان لا يخر ساجداً للحديث الشريف ومعجز القـرآن.. وشـرع يقيـنى

بتفوق أمتى يزداد رسوخاً من ذلك الحين ونار حبى وحماستى تزداد ذكاء ببرد هذا اليقين"[12].

بل أكثر من هذا.. هذا هو ميشيل عفلق.. بلحمه وشحمه يقول – فى لحظة من لحظات الإلهام الصادق..

"الفكرة القومية المجردة فى الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين لأن الدين دخل على أوربا من الخارج فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق لم تنزل بلغاتها القومية ولا أفصح عن حاجات بيئتهم، ولا امتزج بتاريخهم فى حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكونى ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل، والنفس بالقدر[13].

وفى مصر وجد الكاتب القبطى الدكتور نظمى لوقا مؤلف "الموسوعة الإسلامية الكبرى" التى تضمنت عدداً من أفضل الكتب عن حياة النبى صلى الله عليه وسلم كما وجد الزعيم السياسى مكرم عبيد الذى قال "أنا مسلم وطنا.. ونصرانى دينا" وكان الزعيم السياسى المصرى الوحيد الذى اخترق أسوار الجنود التى حاصرت بيت الإمام الشهيد حسن البنا عند استشهاده وحالت دون دخول أى واحد.. وقدم تعازيه إلى أسرة الفقيد.. والذى أهداه الكاتب الإسلامى جلال كشك كتاب "القومية والغزو الفكرى".

وقد عرف الكاتب القبطى الشهير سلامة موسى بعداوته للأديان، ولكنه قال فى "التثقيف الذاتى" على كل شاب ينشد الثقافة ويريد أن يكفل لنفسه معرفة عامة بالثقافة العربية القديمة أن يقتنى القرآن باعتباره الأساس الذى بنى عليه المجتمع العربى وليس هذا واجب كل مسلم، بل هو واجب كل مسيحى ويهودى أيضاً. وقال "إن الإسلام هو أقرب العقائد والأديان إلى العقل وكان أول من دعا إلى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر[14].

قومية دون إسلام:

فى مقابل الخط السابق الصريح الذى يرتكز على وقائع وحقائق تاريخية، ويصدقه كفاح بطولى ضد الاستعمار رفعت رايته الدعوة الإسلامية نجد أن البدائل التى تتجاهل الإسلام تتخبط تخبطاً شنيعاً. إن عجز الهيئات الإسلامية عن التوصل إلى

---

[12] **(12) من كتاب "هذه قوميتنا للأستاذ عبد الرحمن البزار ص238 – 241 .**

[13] **(13) فى سبيل البعث ميشيل عفلق تحت عنوان "ذكرى الرسول العربى". وقد قيل إن ميشيل عفلق اعتنق الإسلام وأوصى أن لا يعلن هذا إلا بعد وفاته. وقد قرأت مقالاً فى مجلة "سوراقيا. [اختصار سوريا – العراق] التى تصدر فى لندن – وكنت هناك وقتها بعنوان "ميشيل عفلق فى ذمة الإسلام" وشاهدت صورة جسده محمولاً على اكتاف قادة حزب البعث العراقى – وفى مقدمتهم صدام حسين – يدخلون به المسجد للصلاة عليه. فإذا صحت الواقعة فلها مغزاها وإن لم تصح فمغزاها أعظم .**

[14] **(14) أنظر حوليات سلامة موسى .**

الصيغة السليمة التى يمكن أن يقوم عليها المجتمع العربى الحـديث قد أفسح المجـال لهـذه البـدائل. ولكن تجاهل الإسـلام فى كل هـذه البـدائل أوجد ثغـرة اسـتحال عليها سدها، ولما كـانت هـذه البـدائل تعـود إلى أشـخاص القـائمين عليها وتتـأثر بملابسـات نشــأتهم وغيرها من العوامل الذاتية مما يجعلها ليست على اســتعداد لإحلال الإســلام محله الواجب فى المجتمع العربى، فلم يكن ثمة مناص من عملية التنكر لكل الماضى الإسلامى وقطع الصلة به والبدء من الحاضر وسد الثغرة الواسعة التى أوجـدها تجاهل الإسلام بمحاولة الانتماء إلى أيديولوجية دولة من الـدول الكـبرى وبوجه خـاص الاتحـاد السوفيتى وفرنسا وهذا هو ما نراه بالنسبة للشيوعيين الـذين جعلـوا قبلتهم موسـكو.. والموارنة الـذين جعلـوا قبلتهم بـاريس، وقبلت كل مجموعة منها حضـارة وقيم الدولة التى تطفلوا عليها وسعوا لأن يكونوا تبعا لهاً.

أما الدعوات الأخرى فكلها تتبع طريقة التلفيق بدءا من أنطون سعادة "مؤسس الحزب القومى" ثم حزب البعث ثم الاشتراكية العربية التى وضعها جمال عبد الناصر.. والمحــاولات التلفيقية فى الــدول الأخــرى.. وهى كلها اجتهــادات ســندها الأعظم هو الحكم، ولو تخلى عنها الحكم لهوت وسقطت وهـذا الحكم نفسه عسـكرى يقـوم على أسنة الرماح وقد عجزت هذه النظم عن أن تجد مؤمنين بها، كما عجزت عن أن تـدفع عن نفسها تسلل الشيوعيين الذين أصبحوا غصة فى حلقها، وحليفا لدودا لها، والشىء الوحيد الذى نجحت فيه هو إيجاد طبقة منتفعة وضعتها فى المراكز القيادية لتدافع عن مغانمها وبالتالى تحفظ النظام.

والقومية العربية عند هؤلاء بدأت على حد قول مصطفى الشهابى الذى آمن بما ذهب إليه جـورج أنطونيـوس فى كتابه "يقظة العـرب" "فى بـيروت وكـان من روادها الأوائل المعلم ناصـيف اليـازجى والمعلم بطـرس البسـتانى والشـيخ يوسف الأسـير" وهذه المجموعة كانت تقاوم تركيا وتضع اللغة العربية الـتى تبنتها محل الإسـلام الـذى تبنته تركيا.

ودستور هذه المجموعة القومية العربية كان قصيدة إبراهيم اليازجي.

تنبهوا واستفيقوا أيها العــــرب   فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

وهى قصـيدة عنترية تسـتنهض العـرب للثـورة على الـترك بحد السـيف وصـليل البيض الخ... وقد اعتبرها دعاة هذه المجموعة نوعاً من "المزامير" أو المارسيليز.

والملاحظة الأساسـية الـتى فـاتت كل دعـاة هـذه المجموعة فى غمـرة إعجابها بالقصيدة أن القصيدة وإن تضمنت ثورة على الترك إلا أنها لا تقـدم الأسـاس الإيجـابى للقومية العربية أو النظرية للقومية العربية.

وكائنا ما كــان هــذا النقص فنحن على كل حــال نتقبلها كخطــوة، فمن الزاوية الإسلامية البحتة – فإن كل حـرص أمين على اللغة العربيـة، واعـتزاز حقيقى بهـا.. لابد

وان يقـود إلى الإسـلام، ولابد وأن ينتهى إلى القـرآن، ولكن نقطة التحـول جـاءت مع ظهور الجماعة الفرنسية التى تفتقد الإسلام والعربية معاً.. ومع هذا تـدعى العروبـة!!! ويضعها مؤرخو القومية العربية بين مؤسسى القومية مثل نجيب عـزورى الـذى أسس جمعية الوطن العربى فى باريس سنة 1904 وألف كتابـاً بالفرنسـية عن "يقظة الأمة العربية" وكان من أفكـاره أن مصر ليست عربية وعـارض اسـتقلال مصر عن بريطانيا وأسس فى مصر حزباً صـغيراً تعـاون مع الدولة المحتلة ووضع آماله العربية السـورية فى فرنسا أولاً وفى إنجلترا ثانيا.

وعلق على دعوة المسيو "عزورى" هـذا أحد مـؤرخى القومية العربية فقـال ".. دعوته هذه لم تكن لتلقى صـداها فى البلاد العربية فى يسر لأن نشـاطها ومقرها كـان فى باريس وباللغة الفرنسية ولأن صاحبها كـان داعية للـدول الغربيـة: فرنسا وإنكلـترا ولم يخل كتابه من تمجيد لهما، فكان ذلك مجال للشك والشبهة". ويؤكد مؤرخ آخر أن أحداً من الشباب العربى لم يهتم بكتابه.

وروى جميل بيهم أن قنصل فرنسا كـان أحد أعضـاء الجمعيـات البيروتية الـتى تعمل للتخلص من الحكم العثمانى.

ويقول إدوار عطية.

"كان السوريون المسـيحيون يكرهـون السـيادة التركية ويتطلعـون نحو التحرر منها لا بقصد تأليف دولة سورية مسـتقلة لأنهم يكونـون فى مثل هــذه الحالة مضــطرين لأن يخضــعوا لحكم يشــكل فيه المســلمون أكثرية ســاحقة وعندئذ يتعرضــون.. حسب اعتقــادهم إلى الاضــطهاد والظلم، وعليه كــانوا يتطلعــون نحو التحــرر من الســيادة الإســلامية بمساعدة دول أوربية تطرد الترك من البلاد وتحكم سوريا بدلا منها.

يستطرد إدوار عطية.

"أن ذلك لم يكن يعد خضـوعاً لسـيادة أجنبيـة، ولم يكن الأمر كـذلك طالما أن الدولة الأوروبية المســـــيحية هى من نفس الديانة الـــــتى يعتنقونها.. أليس أهلها أخوة لهم فى المسيحية ؟ وبـذلك يتخلصـون من النظرة التى كان ينظر إليهم بها المسلمون من كـونهم أقل منزلة منهم وليتحرروا من الاضطهاد الذى ظلوا يرزحون تحته منذ مئات السنين[15].

وبجـــانب المدرسة الفكرية اللبنانية وجـــدت مدرسة فكرية ســـورية تتفق مع المدرسة اللبنانية فى استبعاد الإسلام ولكنها لا تربط انتماءها بدولة وحـاولت أن تبـدع أساسـاً فكريا لقومية عربيـة، وعن هـذه المحاولة تكـون الحـزب القـومى السـورى لأنطون سعادة وحزب البعث لميشيل عفلق وأول هذين – أنطون سعادة – مثال هزيل

---

15 **(15) أنظر كتاب القومية والغزو الفكرى للأستاذ محمد جلال كشك ص219 – 292 .**

"مهـــزوز" لهتلر وموســـولينى وقد حالفه ســـوء الحظ لأنه لم يســـتطع التوصل إلى مجموعة من الضباط تقوم بـانقلاب وتحكم باسـمه، الأمر الـذى نجح فيه حـزب البعث فى ســوريا والعــراق، أما ميشــيل عفلق نفسه فهو مفكر حــالم لا يجد إلا العواطف يزجيها لجمهوره وقرائه وإن قام حكم حزبه فى سوريا والعراق على الحديد والنار.

وفى المحصـلة الأخـيرة.. فـإن القومية العربية لن تعـدو مهما أحاطها به أتباعها من دسم أو عواطف أو مشــاعر، ومهما قــالوا إنها لا تقــوم على عنصر أو جنس لأنها مفتوحة لكل من يتكلم العربية (لأنه عمليا لن يتكلم العربية إلا العـرب) فإنها لن تكـون إلا نزعة عنصــرية شــوفونية تتسم بكل ما تتسم به هــذه النزعــات من تقطب ما بين العاطفية والفاشية لأنه مع افتقاد الإسلام تفقد القومية العربية:

1- المقياس الموضوعى كل الموضوعية.

2- الطابع الإنسانى كل الإنسانية.

3- النظرية الشـمولية الوحيـدة الـتى ظهـرت فى العـرب، والـتى على إحكامها الشمولى تبرأ من لوثات الشمولية الفاشـية والشـيوعية لأن عنصر الشـمولية يقـوم على الإيمان الطوعى ألا وهى الإسلام.

4- المساهمة العظمى التى قدمها العـرب إلى الحضـارة عنـدما اعتنقـوا الإسـلام ورفعـوا راياتـه. فعلى أساسه قـامت الحضـارة العربية والـتى اشـتركت فى إقامتها أجناس لم تجرٍ فى عروقهم دماء عربية، ولم تجرِ ألسنتهم بلغة عربيـة. وإنما أسـلم قيادهم وكفل مشـاركتهم الإسـلام ووجد من أكـبر النـابغين الفـرس من يقـول "لأن أهجى بالعربية أفضل من أن أمدح بالفارسية" كما قال المفكر الفارسى العظيم أبو الريحان البيرونى، ومن قبله قال الشاعر:

بك اتصلت أســبابنا بعد غربة   فنحن بنو الإسلام ندعى وننسب

ويخطئ حــزب البعث ويخــالف التــاريخ ويلجأ إلى الخــداع عنـدما يتحـدث عن القومية العربية "رسـالة خالـدة" فلم تكن الرسـالة الخالـدة حصـيلة القومية العربيـة. وإنما كان الإسلام هو الذى أبرز العرب وأشهرهم بعد نكر وأعلاهم بعد خمول ووحدهم بعد فرقة، فإذا كان للعرب فخر فإن فخرهم بالإسلام، وإذا تجردوا منه فإنهم يتجردون من مساهمتهم الحقيقية فى عالم الحضارة.

فإذا كان استبعاد الإسلام أو تجاهله فى كل تصور قومى قد أدى إلى هذا التخبط والتزييف فى سوريا والعراق ولبنان... وإذا كـان من المعـروف أن الـذين قـاموا بهـذه المحاولات الهزيلة ليسوا من المفكرين أو المثقفين الثقات، فإن المأسـاة تكـررت فى مصـر، وعلى يـدى مفكر وكـاتب لاشك فى ثقافته وتمكنه العلمى، ولكنه لم يسـتطع – لعدد كبير من العوامل – أن يضع الإسلام موضعه فلم تشفع له ثقافته أو تمكنه من أن

يسقط سقطة فاحشة من العسير أن نتصـور أن يقع فيها لـولا أن تجاهل الإسـلام غـير الصورة كلية.. وأخل بالحسابات تماماً..

هذا هو الدكتور لويس عوض يحدثناً عما اسماه "مشروع الاستقلال الأول" الذى وضعه المعلم يعقوب فى أعقاب الحملة الفرنسية على مصر..

والمعلم يعقوب هذا من واقع ما كتبه الدكتور لويس رجل قبطى كـان يعمل فى خدمة بعض المماليك وعندما دخل الفرنسيون مصر التحق بجيش الجنرال ديزيه وكـان – كما يقـول لـويس عـوض يشـترك فى قتـال المماليك بشـجاعة وضـراوة جعلتا الفرنسيين يقدمون له سيفا تذكاريا تكريمـاً لـه، فلما غـادر بونـابرت مصر عـاد المعلم يعقوب إلى القاهرة وكلفه كليبر بتنظيم مالية البلاد، وعينه قائداً للفيلق القبطى الـذى شكل فى مصر ليعاون الفرنسـيين فى حـربهم ضد المماليك والأتـراك ثم عين المعلم يعقوب مستشاراً لمسـيو اسـتيف مـدير الإيـرادات العامة ورقـاه القائد العـام عبد الله جاك مينو إلى رتبة جنرال وجعله مساعداً للجنرال بليار فى مارس 1801 للـدفاع عن القاهرة ضد هجوم الجيش التركى الإنجليزى. ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصـيره ومصـير الفيلق القبطى بمصـير الجيش الفرنسى وعند تسـليم القـاهرة فى يونيو 1801 دخل الجنرال يعقوب فى اتفاقية التسليم، وهكذا غادر القـاهرة ليبحر إلى فرنسا مع الجيش الفرنسى بعد ثلاث سنوات قضاها فى التعاون مع الفرنسيين.

وهنـاك وثـائق تـدل على أن المعلم يعقـوب قد نشـأت بينه وبين الجـنرال ديزيه صداقه متينة وعميقة. فنحن نعلم أنه حين جاءت الأنبـاء إلى القـاهرة بمـوت ديزيه فى معركة مارنجو افتتح اكتتاب بين جنود الجيش الفرنسى فى مصر لإقامة نصب تـذكارى تخليداً لذكرى ديزيه فكتب المعلم يعقوب إلى القائد العام قائلاً إنه متبرع وحـده بثلث المبلغ المطلوب لإقامة هذا النصب التذكارى لهذا الرجل الذى يقول يعقوب إ نه "وهبه قلبه" فلما مات الجـنرال يعقـوب كـانت آخر كلمـات ذكرها له الجـنرال بليـار طلبه أن تدفن رفاته فى قبر ديزيه[16].

هذا هو البطل القومى، وتلك هى مؤهلات بطولته.

يستطرد الدكتور لويس عوض فيقـول إن المعلم يعقـوب رفض البقـاء فى مصر بعد هزيمة الفرنسيين وخرج معهم، وكـان من حظه أن يـركب مع الجـنرال بليـار على ظهر الفرقاطة الإنجليزية "بـالاس" الـتى كـان قومنـداتها الكـابتن جوزيف أدمونـدز، وأبحـرت متجهة إلى قـبرص وسـاحل آسـيا الصـغرى وبعد أن أبحـرت بيـومين أصـابت يعقوب الحمى واشتد عليه المرض فمات بعد أربعة أيام.

وقبل أن يموت أفضى إلى كابتن الفرقاطة بمشروعه الخـاص باسـتقلال مصـر، وكان هـذا المشـروع كما لابد وأن يكـون بحكم مقـدمات وكفـاح هـذا البطل ضد قومه

---

16 **(16) تاريخ الفكر المصرى الحديث (كتاب الهلال) للدكتور لويس عوض – الجزء الأول ص181 .**

ومساعدته للغزاة المحتلين ومحاربته فى صفوفهم شيئاً أقرب إلى دعوة بريطانيا لفرض وصاية أو انتداب على مصر وجوهر مشروع الاستقلال المزعوم هو:

"إن الإمبراطورية العثمانية توشك أن تتداعى من كل جانب ولذا فمن المهم للإنجليز أن يلتمسوا بعض الوسائل المضمونة للاستفادة من عهد تمزيقها التاريخى بأنسب طريقة تحقق مصالحهم السياسية المستقبلية وإذا كان من الواضح أن من المستحيل على إنجلترا أن تمتلك مصر امتلاكها لمستعمرة وإذا كانت نفس هذه الصعوبة تقوم فى طريق فرنسا فإن "مصر المستقلة" ستكون إذا جاز هذا التعبير خاضعة لتأثير إنجلترا التى تملك ناصية البحار المحيطة بها. ولاشك أن استقلال مصر سيعجل بازدهارها ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية غنية بالحاصلات الوفيرة الناتجة من تربتها الخصبة وغنية بتجارتها التى تنفرد بها مع وسط أفريقيا فما من دولة أخرى تستطيع أن تقوم بهذه التجارة. كل هذه المزايا مجتمعه سوف تعود بالثراء المطرد من غير شك على الأمة التى سيهمها دائماً أكثر من غيرها بسبب الهند، أن تتاجر مع مصر وفى بحارها".

أما كيف يحكم المصريون أنفسهم فهذا ما جاء بالمشروع عنه:

"فإذا ما أجازت الحكومات الأوربية استقلال مصر فالسؤال هو: كيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم.

أولاً: إن هذه المذكرات المكتوبة على وجه السرعة لا تسمح لنا أبداً بالدخول فى تفاصيل مشروع الحكومة التى يقترح الوفد المصرى إقامتها ولكن يكفى أن نلاحظ إن إنشاء هذه الحكومة لن يكون قط نتيجة لثورة استحدثها نور العقل أو اختمار المبادئ الفلسفية المتصارعة، ولكن تغييراً تجريه قوة قاهرة على حياة قوم وادعين وجهلاء، يكادون ألا يعرفوا فى الوقت الحاضر إلا عاطفتين تحركان الأخلاق: المصلحة والخوف.. فقليل من مال يزاد أو شىء من رخاء يضاف إلى حياة هؤلاء السكان نتيجة لقيام هذه الحكومة الجديدة، وهو أمر ليس بصعب التحقيق، يجعلهم بغير شك المدافعين الغيورين عن هذه الحكومة، ويجعلهم يحبونها، وكيف لا إذا كان أى شىء فى العالم أفضل من الطغيان التركى، فلتكن الحكومة الجديدة عادلة وقاسية وقومية.. كحكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت عليك قصتها، فهى بالتأكيد سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب.

ثانياً: كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد الأوربيين أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا بعد وقت طويل وعندما تصبح القوة القومية منظمة وتكون قد اكتسبت الاحترام. أم أن هذا الدفاع عن الاستقلال سيكون ضد الترك والمماليك فى هذه الحالة نعتقد أن الدول الأوربية يمكنها أن ترد عنهم كل عدوان يقع على مصر وبالإضافة إلى هذا ففى إمكان المصريين أن يستقدموا على حسابهم قوة أجنبية مساعدة مؤقتة يتراوح عددها بين 12ر000 و 15ر000 رجل يكفون وزيادة لإيقاف الترك عند الصحراء ولتحطيم المماليك فى داخل مصر وستصبح

هذه القوة نواة القوة القومية وبالإضافة إلى هـذا فيما أن العثمانلية يفعلـون أى شـىء من أجل المال فإن المال يجـردهم من السـلاح إذا هجمـوا على مصر فالمماليك كـانوا دائماً يستعملون هذه الوسيلة كلما رأوا عاصفة تتجمع ضدهم فى استانبول".

ولا نـرى أنفسـنا فى حاجة إلى التعليق على المشـروع المزعـوم، إن الـدكتور لـويس عـوض لو أعطى الإسـلام واحد فى المائة فحسب من الأثر الـذى كـان له فى المجتمع المصرى وقتئذ لما قبل أن يسـمى هـذا المشـروع مشـروع الاسـتقلال الأول، ولكن ماذا يفعل لويس عوض غير ذلك وهو الذى لم يتنكر للإسـلام فحسـب، بل وللغة العربية، وهو صاحب الدعوة إلى "كسر رقبة البلاغة العربيـة، وصـاحب الصـيحة". مـات الشعر العربى مات عام 1932 بمـوت أحمد شـوقى. والـذى كـان بحكم ثقافته أجنبيـاً تماماً عن الثقافة العربية ولم ينكر هو نفسه أنه أوربى بحكم المزاج والثقافة.

* * *

وهكـذا نجد أن هـذه الزمر والجماعـات الـتى تجـاهلت الإسـلام قد تفـرقت بها الطـرق إلى متاهـات فالمجموعــة اللبنانية المارونية لم تجد إلا التبعية الفرنســية مثلاً أعلى ومجموعة القومية العربية أنطون سعادة وميشيل عفلق لم تصل إلى ما هو أبعد من النزعـات الشـوفونية الـتى راجت فى ثلاثينـات القـرن وطعمت بعد ذلك بعناصر اشـتراكية واسـتثارات عاطفية عربية فأصـبحت تلفيقا مشـوها لا يسـتند على إيمـان.. ولكن على أسـنة الرمـاح.. وليس فى هـذا كله طائـل.. ولا تـزال الأمة العربية تفتقد أساسها الموضوعى المكين – الإسلام.

عزيز المصرى رائد القومية العربية الإسلامية:

فى مقابل هذه المحاولات الملفقة، والمتهافتة فى التنظير والتطبيق التى انتهى إليها المفكرون والزعماء المناهضون للإسلام، نجد أن فكرة القومية العربية السـليمة، أى التى تعتبر الإسلام ذخرها وخصيصتها – قد ظهرت بقوة بمجرد أن بدأ حزب الاتحـاد والترقى سياسة التتريك فى العقد الأول للقرن العشرين. وتجمع الضباط العرب (وهم من الشام والعـراق لأن مصر كـان لها اسـتقلالها عن تركيا – حـول الضـابط المصـرى الأصل – عزيز على المصـرى الـذى سـلخ حيـاة أسـطورية ما بين البلقـان وطـرابلس واليمن والأسـتانة وجـده والقـاهرة ويمكن أن يقـارن فى المجـال العسـكرى بجمـال الأفغـانى فى المجـال الفكـرى ومثلت أكـبر إسـهام لمصر فى الحركة العربيـة، ولو لم يكن لها إلا هذا، لكفى. لأنه الذى درب ووجه معظم القيادات الـتى حملت لـواء النهضة العربية.

ولما كان هذا الجيل لا يعرف الكثير عن عزيز المصـرى فـإنى سـأقتبس فقـرات من كاتب عربى عاصر عزيز المصرى يصعب أن يتهم بالتحيز هو الأسـتاذ أسـعد داغـر. الذى كتب فى كتابه "مذكراتى على هامش القضية العربية".

"وعزيز على هو أبو الفكـــرة العربية وحامل لوائهـــا، فمن حق التـــاريخ على أن أقول كلمة عنه.

كـان عزيز من أركـان جمعية الاتحـاد والـترقى، بل كـان سـاعدها الأقـوى. وقد اعـترفت الجمعية بخدماته العظيمة وأحلته محله مر الاحـترام والإكـرام، ولكنه انفصل عنها بعد أن اتبعت سياسة تتريك العناصر وبالغت بها إلى حد لا تؤمن عاقبته. وقد نصح عزيز لأصدقائه من رجالها بأن يعدلوا عن هذه السياسة ويمهـدوا سـبيل النهضة لجميع العناصر العثمانية، ولا سـيما العـرب، وقد عقد مـرة فى منزلة اجتماعـاً كبـيراً حضـره كثيرون من عظماء الترك وزعماء الاتحاد والترقى للبحث فى تأمين الوحدة العثمانيـة، وعرض على المجتمعين مشروعا استحسنوه جميعاً، ما عـدا أحمد أغـايف الـذى كـانت معارضـته سـببا فى إحبـاط المشـروع وإلقـاء بـذور الخلاف بين عزيز وجمعية الاتحـاد والترقى، وبالتالى بين الفكرتين العربية والتركية.

وقد كـان مشـروع عزيز قائمـاً على تقوية السـلطنة العثمانية بتقوية كل عنصر من عناصـرها وتوثيق عـرى الاتحـاد بينها فلما رأى أن جمعية الاتحـاد والـترقى القابضة على زمـــام الحكم تنتهج سياسة عنصـــرية متطرفة لا يمكن أن يرتضـــيها العـــرب ولا العناصر الأخرى وأن الاتفاق معها على هذه السياسة مسـتحيل، وأنها سـتجر البلاد إلى هاوية الخراب، ولا سيما البلاد العربية التى كانت هدفا لأطمـاع الطـامعين، أيقن أنه لم يبق ثمة أمل بالنجاة إلا بتقوية الروح العربية وتعزيزها. فعمد إلى تأليف حزب عسكرى سـرى هو حـزب "العهـد" وأنشأ له مركـزا فى اسـطنبول، ونظم وسـائل الاتصـال بين أعضائه، كما أن بعض أحرار العرب نظموا جمعية "الفتاة" وكانت سرية أيضاً.

وكانت علاقته بشبان المنتدى الأدبى[17] علاقة الأستاذ بتلاميذه. أو الأب بابنه يبث فيهم الفكرة العربية والروح الوطنية والأخلاق الكريمة الفاضلة، ويعلمهم تاريخ العـرب فى مختلف أدواره موضـحاً ما فى كل منها من مفــاخر، سـواء فى العلـوم والفنـون والآداب أو فى السياسة والإدارة والحـرب، وسـائر مظـاهر الحضـارة من اكتشـافات واختراعـــات. وحـــرص إلى جـــانب ذلك على تنمية حسن الـــذوق فى أولئك الشـــبان وتعليمهم آداب السلوك فى المجتمعات الراقية. وكان يفعل ذلك كله بمنتهى الكياسة.

"ونُقل عزيز على إلى جبهة أســكوب فعــرف كيف يعــزز ســيطرة الاتحــاديين ويبسط نفوذهم فيها حتى استطاع أن يعلن الدسـتور هنـاك قبل أن يعلنه أنـور ونيـازى فى منطقتهما ببضع عشـــرة ســـاعة. وكـــانت المنطقة الـــتى تولاها هى الملجأ الأمين للأحرار.

ولما شبت نار الثورة فى اليمن وغلبت الجنود العثمانية فى معركة جـيزان حيث فقـــدت أكـــثر من 28 ألف مقاتل وانقطعت عنها المؤونة والـــذخيرة بســـبب الحـــرب الطرابلسية رأى عزيز أن يعقد الصلح مع الإمام يحيى. وقد وفق إلى صلح ظل العرب والدولة العثمانية يجنـون ثمـاره حـتى أواخر الحـرب العظمى الأولى. ثم دفعته وطنيته الصادقة إلى طـرابلس الغـرب حيث تمكن على قلة جنـوده ونفـاد المـال من يـده من وقف الإيطاليين على السـاحل زمنا طـويلاً. وقد شـهد له أعـداؤه بـالتفوق فى ميـادين

---

17 **(17) كان هذا هو مركز ومنتدى الشبان العرب فى الأستانة .**

القتال وكتبت المجلات العسكرية الألمانية تقول إن معركة 16 يونيو سنة 1913 الـتى انتصر فيها على الإيطاليين هى من وجهة الفن العسكرى. كمعركة "كـان" الـتى انتصر فيها هنيبال على الرومانيين ولا يـزال رجـال الحـرب يتخـذونها نموذجا لحسن القيـادة" انتهى الاقتباس من الأستاذ أسعد داغر.

بالإضـافة إلى مجموعة الضـباط الـتى التفت حـول عزيز على المصـرى وألفت "العربية الفتـاة" بعد "حـزب العهـد" وجـدت مجموعة من المفكـرين والفقهـاء الـذين انتظموا فى عدد من الأحزاب كان أعظمها حزب اللامركزية الذى كـان من بين أقطابه الشيخ رشيد رضا والشيخ أحمد طبـارة والسـيد عبد الحميد الزهـراوى رئيس المـؤتمر العربى فى باريس سـنة 1913 وكلهم من أصـحاب الاتجـاه الإسـلامى كما كـان هنـاك المنتدى الأدبى الذى ضم شباب العرب فى الأسـتانة ورأسه عبد الكـريم خليل وجمعية الإصلاح البيروتية وقوامها نخبة من أعيان سـوريا وجمعية البصـرة الإصـلاحية ورئيسـها السيد طالب النقيب.

وكانت هذه الأحزاب والجماعـات تطـالب بـالحكم الـذاتى للمنطقة العربية فى إطـار الدولة العثمانيـة. ولم يطلب واحد منهم الاسـتقلال التـام أو يهـدف إلى الخـروج عليها.. حتى وصل شنآن عداوة الترك للعـرب درجة لم يعد معها مجـال للتعـاون فأبعد الضباط العرب من قيادات الجيش وحـوربت اللغة العربية وسـفهت التقاليد الإسـلامية ثم كانت أحكام جمال باشا حاكم سوريا بالإعدام على زهرة مفكـرى وسياسى العـرب فقطعت كل جسور التعاون، ولا يمكن لأشد مناصرى القومية العربية القول غير ذلــك، بحكم ما أظهرته القيــادات العربية من تأييد لتركيا وما أعلنته الأحــزاب العربية حــتى قيام الحرب العالمية الأولى ومن أبرز الكتب التى أصدرتها الهيئات العربية وقتئذ كتاب "ثورة العرب" الذى طبع فى القـاهرة سـنة 1916 وأهـدى إلى شـهداء العـرب الـذين أعدمهم جمال وقد خصص المؤلف، وهو أحد رجال هـذه الهيئـات الفصل الخـامس من هــذا الكتــاب للتــدليل على "إخلاص العــرب للاتحــاديين"، وجــاء فيه "أخلص العــرب أمراؤهم وأحزابهم للاتحـاديين قبل الدسـتور، وبعـده، وأخلصـوا لهم بعد الاتفـاق الـذى أبرمـوه معهم أواخر سـنة 1913 وبعد إعلان الحـرب أيضـاً، والأدلة على ذلك عديـدة" وأورد المؤلف خطابات كتبها أبطال وضباط العرب مثل سليم بك الجزائرى الذى كــان يعد بعد عزيز المصرى أبرز ضابط عربى فى الحركة. ومختـار بيهم وعبد الكـريم خليل رئيس المنتــدى الأدبى وعبد الحميد الزهــراوى قطب حــزب اللامركزية وعضو مجلس الشيوخ العثمانى وكان هؤلاء من الذين أعدمهم جمـال باشا وبعد أن أورد المؤلف هـذا الخطاب قال..

"فهذه الكتب السياسـية السـرية، ومئـات من أمثالها تظهر للملأ إخلاص للعـرب للاتحاديين قبل إعلان الحرب الأوربية وبعدها، ولكن هـذا الإخلاص العظيم لا يظهر بـأتم مظــاهره إلا بعد دخــول الدولة العثمانية فى الحــرب، فقد تناسى العــرب حينئذ كل خلافهم مع الـترك وانضـموا إليهم قلبا وقالبـاً دفاعــاً عن الـوطن المشـترك فخـاض جنودهم غمار المعارك فى العراق والقوقاز والـدردنيل والقنـال ومـات منهم عشـرات

الألوف فى ميادين القتـال واشـتركت الأمة العربية مع جميع الشـعوب العربية فى دفع الضرائب والأموال بحيث يمكننى أن أقول استناداً إلى إحصاء رسـمى أن ما دفعته من الضرائب والتبرعات الحربية عن طيب خاطر كان أضعاف ما ضـرب على الأمة التركية وما تبرع به الترك فى هذه الحرب.

ولو كـان زعمـاء ومفكـرو العـرب يعملـون وقتئذ للانشـقاق عن الدولة العثمانية وقت محنتها وعند حربها لجاز لجمـال باشا أن يـأمر بإعـدامهم باعتبـار ذلك خيانة وكل القوانين الحربية تجيز له هذا. ومن ثم لا يصبح "سفاحاً"[18].

وكل من يتصدى لتحليل التيارات الـتى كـانت تتجـاذب مفكـرى وزعمـاء العـرب وقتئذ يجد أنها:

1- التيار الإسـلامى الـذى كـان يريد من الناحية السياسـية حكما ذاتيا داخل إطـار الدولة العثمانية ومن الناحية الاجتماعية إصـلاحا يقـوم على الـدعائم الإسـلامية وقد استمر هذا التيار حتى أحكام الإعدام 1916 التى يمكن اعتبارها نقطة التحول.

2- التيار القومى الذى كان يريد استقلال الدول العربية بعد أن تقطعت العلاقــات بين العرب والترك بعد أحكـام الإعـدام. وهـذا التيـار وإن لم تكن الفكـرة الإسـلامية منطلقه، إلا أن أصحابه وجدوا أن من الضرورى الاستعانة بالإسـلام ليكـون الركـيزة العظمى للحركة الجديدة ومن هنا وقع الاختيار على الشـريف حسـين وأبنائـه، وبـرز فى إعلان الثورة على الترك هجوم الترك على الإسلام.

ومعنى هذا أن التيار القومى لم يستطع أن يتدفق إلا بدافع إسـلامى، لأن فعالية الفكـــرة القوميـــة، على ما اكتســـبته من حماسة لم تكن كافية لإقامة دولـــة.. وإعلان ثورة..

3- المسـيحيون. وقد وقفت قلة منهم مع التيـار القـومى – الإسـلامى، وقد صـور الأستاذ أسعد داغر انطباعاته عندما قدم الأستانة قبيل إعلان الحرب العالمية الأولى "فى أثنــاء ذلك ظهر بين المشــتغلين فى السياسة باســطنبول رأيــان متناقضــان أحدهما يقول بوجوب السعى إلى فكرة الجامعة الإسلامية والثـانى يـرى أن القومية هى الأسـاس الـذى يجب أن تقـوم عليه الـدول منذ الآن، وأن الجهـود كلها يجب أن توجه إلى خدمة الفكرة العربية مجردة عن كل شىء..

وقد كنت أنا من جملة المؤيدين للرأى الأول القائل بالفكرة الإسلامية لاعتقـادى بأن هذه الفكرة قوة عظيمة للعرب إذا أحسنوا استخدامها.

ولكن الأغلبية العظمى من المسيحيين وجـدت أن التعـايش مع المجتمع العـربى الجديد المستقل لن يتيسر، ومن ثم فإنها طالبت بحماية فرنسية أو وضع خـاص. وبـدأ

---

[18] **(18) المفارقة إن هذا المجرم الأثيم جمال باشا فى الوقت الذى كان يتهم العرب زورا بالانشقاق عن الدولة، كان هو نفسه يجرى مفاوضات مع الحلفاء ليستأثر هو بحكم المنطقة العربية مستقلا عن الدولة العثمانية ورفض الحلفاء ذلك ..**

بعض هؤلاء بالفعل الاتصـالات ووقعت بعض وثـائق هـذه الاتصـالات فى يد جمـال باشا بمجرد وصوله إلى سوريا وكـانت من الأسـباب الـتى عـززت شـبهاته فى معظم دعـاة الحركة العربية".

بداية مشبوهة ونهاية مهينة:

رأينا إن القومية العربية المجردة من الإسـلام والـتى تبناها حـزب البعث ولفيف من المارونيين والمسيحيين الذين نظَّروا لها ونهضوا بها – تأخذ بدايتها من حركة الملك حسين عندما ثار على تركيا وانضم إلى الحلفاء الذين وعـدوه فى خطابـات مكمـاهون بدولة عربية من الحجاز حتى الشام بما فيها العـراق، فى الـوقت الـذى كـان سـايكس وبيكو ممثلاً بريطانيا وفرنسا يقسـمان المنطقة العربية بينهمـا، وكـانت بريطانيا تعلن وعد بلفور. وبناء على هـذه البداية المشـبوهة قـاد الكولونيل لـورنس الحركة من وراء الستار. وكان هو المحرك والممول العملى وراء تحركـات الملك حسن وابنائه فيصـل، وعبد الله. وتبينا بالطبع إن هذه الوعود كانت خـداعاً لم تسـفر إلا عن سـيطرة فرنسا على سوريا وغرس إسـرائيل فى فلسـطين وإعلان الانتـداب البريطـانى على العـراق. حتى ثار العراقيون، وأرادت بريطانيا ترضـيه الملك عبد الله فيسـرت أن يكـون فيصل بن الملك حسين ملكاً للعـراق. كما اقتطعت إمـارة شـرق الأردن وأعطتها للأمـير عبد الله.

من هذه البداية المشبوهه تبنت فكرة القومية العربية أحزاب العسكر العازفة – إن لم تكن الكارهة للإســلام – كحــزب البعث فى ســوريا وعلى رأسه الطاغية حافظ الأسد وحـزب البعث فى العـراق وعلى رأسه الطاغية صـدام حسـين. وقد كـان حكم هذين الطاغيتين فى حد ذاته أكبر إدانة للقومية العربية التى ادعياهـا. ولكن الأمر كـان أعجب. إذ أن عداوة مريرة استعرت بين حزب البعث السورى وحـزب البعث العـراقى نشأت عن رغبة الاستئثار بالملك والزعامة. والملك – كما قال عبد الملك بن مـروان – عقيم لا يقبل إبنا أو أخا أو شريكا، وأدت المنافسة ما بين هذين الطاغيتين على زعامة القومية العربية إلى تمزيق العلاقــات ما بين الشــعبين الشــقيقين ســوريا والعــراق وإضرام العداوة بينهما وإيقاف العلاقات الدبلوماسية والسياسية.

ولما ظهر عبد الناصر الـذى لم يـؤمن فى بدايته بقومية عربية ولكنه أراد مظلة نظرية تظله ويقاوم بها الفكرة الإسلامية التى اعلن عليها حربا شـعواء فوجد بغيته فى القومية العربية الــتى أصــبح ما بين نهــار وليل زعيمها الملهم وممولها الأعظم! وأدى الهــوس بالقومية العربية إلى إقامة الوحــدة ما بين ســوريا ومصر الــتى لم تلبث أن تفككت وخلقت العداوة ما بين مصر وسوريا ردحا من الـوقت، كأنما القومية العربية لا تثمر إلا العداوات بين الشعوب.

بعد موت عبد الناصـر، وانفضـاض مولد القومية العربية فى مصـر. انفـرد حـزب البعث فى سوريا والعراق بتبنيها، وكـون كل واحد منهما هيئـات للعمل للقومية العربية ينفق عليها.

وظهر زعيم جديد للقومية العربية هو العقيد القــذافى الــذى اعتــبر نفسه وارثا للناصرية وامتداداً لعبد الناصـر. وتحمس القـذافى وانفق الكثـير، وصـال وجـال. ولكن جهـوده كلها بـاءت بالفشل فاصـطدم بجامعة الـدول العربية وعـادى الملـوك العـرب. وتقبل على مضض وجــود الأسد وصــدام فهما الســابقون الســابقون وهما مثله من العســكر. وفى النهاية يــأس ونــدم "وأصــبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشــها" فــأعلن كفــره بالقومية العربية ولم يكتم رغبته فى الانســحاب من الجامعة العربية واتجه نحو أفريقيا وحــــول أمواله وجهـــوده نحوها بآمل أن تنجح فى تكوين "اتحاد الولايات الأفريقية" وباختفاء صدام، وتنحى القذافى. وانزواء سوريا جفت المنـابع أمـام الـذين احـترفوا الـدعوة للقومية العربية وتخصصـوا فيها وحملـوا لواءها وعقدوا مؤتمراتها..

إن الإنسان ليأسى عندما يرى مجموعة من أفضل المثقفين العرب وقد أهــدروا جهـودهم وفكـرهم فى قضـية القومية العربية اتباعا لسياســات حكـامهم أو انخــداعاً بالأمل العــريض والــوهم الجميل فمضــوا يعقــدون النــدوات ويصــدرون القــرارات والتوصيات وينفقون الأموال ويصدرون الصحف، ولو تركـوا لأنفسـهم يعـالجوا القضـية بالطريقة الجديرة بكل فكر، لبدأوا من الواقع ولحددوا الإجراءات ذات الأولويات والتى يمكن تنفيـذها مثل التكامل الاقتصـادى والسـوق العربية المشـتركة وصـور التواصل الفكرى مثل تيسير وصول الصحف والمجلات ما بين الدول العربية بعضها بعضاً.

وكـــان عليهم بعد ذلك أن يضــعوا الخطط لما تكــون عليه عمليا هــذه القومية العربية وهل هى تعــنى أن تكــون كل الــدول العربية دولة واحــدة ذات رآسة واحــدة وسيادة واحدة. أم تكون دولاً فى إطار كونفدرالى أو فدرالى، ولعلهم لو فكروا طـويلاً لوجدوا أن من الأفضل الوصول إلى هذه الوحدة على مراحل. كان تتكون وتتوحد دول الجوار فى إطار كوفدرالى فيكون هنـاك دولة تضم مصر وليبيا والسـودان، ودولة تضم الشمال الأفريقى (تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا) ودولة تضم دول شبه الجزيرة العربية أى الحجـاز واليمن ودول الخليج، وتحتفظ كل دولة من هـذه الـدول بدرجة من اسـتقلاليتها ولكن يمكن أن ترفع الحـواجز الجمركية على الأشـخاص والسـلع فيصـبح دخولها وخروجها حراً فـإذا تحققت هـذه الوحـدات من الـدول فيمكن أن يتسع الإطـار فيضمها جميعا إتحاد الدول العربية وقد سلكت أوربا هذا المسلك بهـدوء وبطأ ومثـابرة حتى تكللت جهودها، فتهدمت الأسـوار القومية والجمـارك والحـدود واشـتراط الفـيزا، وتوحدت العملة، وتوحدت السياسـات الاقتصـادية، ولم يبق إلا القليل حـتى تظهر أوربا الموحدة.

رؤية " للأمم العربية المتحدة ".

بقلم الإمام الشهيد حسن البنا[19]:

لقد كـانت هـذه الرؤية موجـودة فعلاً، وتقـدم بها الإمـام الشـهيد حسن البنا إلى قادة العرب الذين اجتمعوا لتحقيق "جامعة الـدول العربيـة" وتقـدم بها الإمـام البنا فى 18 ســبتمبر ســنة 1944 ولكنها بــالطبع لم تحظ بالعنايــة، وربما بــالنظر، من الديبلوماسيين الذين جاءوا منتفخين بدبلوماسـيتهم ومناصـبهم وألقـابهم الخ... ليضـعوا بعد ذلك الجامعة العربية المنكودة.

وعن فكـرة "العـرب أمة واحـدة" كتبت المـذكرة إن ذلك "أعـدل وأنجح وأوضح قضـية فى التـاريخ" فقد اصـطلحت على تكـوين هـذه الوحـدة العربية وتـدعيمها كل العوامل الروحية واللغوية والجغرافية والتاريخية والمصــلحية وأن العـــرب من خليج فارس إلى المحيط الأطلسى ليتحدون بوحـدتهم أية أمة متحـدة فى القـديم والحـديث وليست تعـوز هـذه القضـية الأدلة والـبراهين. ولكنها يعوزها ثبـات المؤمـنين وعدالة المنصفين.

وتحدثت المذكرة عن تحقيق مظاهر الوحدة العربية فقالت:

فهناك خطـوات أولية تعتـبر وسـائل عملية للوحـدة المنشـودة وهى فى الـوقت نفسه من حق الحكومــات العربية الخــالص الــتى لا ينازعها فيه منــازع ومن تلك الخطوات:

1. رفع الحواجز الجمركية.

2. إلغـاء جـوازات السـفر ومنح حرية المـرور والتنقل فى أى قطر من الأقطـار العربية لكل عربى بعد التأكد من شخصـيته وإباحة الهجـرة والاسـتيطان على نظـام واسع ميسر.

3. التوسع فى التعاون الاقتصادى وتأليف الشركات العربية الواسعة النطـاق من سـكان البلاد العربية جميعـاً فى أى قطر من هـذه الأقطـار ودراسة المشـروعات العربية العامة دراسة مشتركة وإحياء ما تعطل منها كمشروع سكة الحديد الحجازية التى أنشئت بأموال العرب والمسلمين جميعاً.

4. تنمية التعاون الثقافى والتشـريعى والعسـكرى بتوحيد بـرامج التعليم ومناهجه وتوحيد منابع التشريع وقواعده، وتوحيد نظم التدريب العسـكرى وأسـاليبه، ومـؤتمر الوحـدة العربية مطـالب من العـرب جميعـاً بـأن يعمل على تقرير هـذه الخطـوات ورسم الخطط الموصلة إلى تحقيقها وجميع الحكومات والشعوب العربية عليها.

تحقيق الأمانى القومية ومساعدة الأمم الناشـئة على نيل اسـتقلالها واسـتكمال نهوضها.

وتـأتى بعد الخطـوة السـابقة خطـوة ثانيـة، فـإن للبلاد العربية مطـالب قومية وحقوقاً سياسية لم تنلها بعد. ولا فائدة من ذكر العوامل التاريخية والحوادث التى أدت

[19] **(19) لقد نشــرنا نص هــذه الوثيقة كــاملاً فى كتابنا "مسـئولية فشل الدولة الإسلامية فى العصر لحديث الصفحات من 147 إلى 158 (دار الفكر الإسلامى) .**

إلى انتقاص هذه الحقوق واغتصابها ولكن الذى يفيد ويجدى الآن أن نواجه الأمر الواقع والوضع القائم ونجاهد فى سـبيل تحقيق هـذه المطـالب وتخليص تلك الحقـوق، وعلى مؤتمر الوحدة العربية ولجنته التحضـيرية أن يرسم للشـعوب والحكومـات طرائق هـذا الجهاد المشترك وأن يقرر تكاتف الجميع فى سبيل كسب هذه القضايا التى منها:

1. العمل على استكمال استقلال مصر والمحافظة على وحدة وادى النيـل، فكل محاولة يراد بها انتقاص استقلال مصر أو تقييد هذا الاستقلال أو تمزيق وحـدة وادى النيل عمل ظالم، يؤثر فى كيان الأمة العربية العام، وعلى كل شعب عربى وحكومة عربية أن يشد أزر مصر وحكومتها وشعبها فى سبيل هذه القضـية حـتى تفـوز فيهـا. ويجب أن يكـون مفهومـاً للـرأى العـام العـربى العـالمى كله أن مصر حين تتمسك بوحدة وادى النيل لا تعتدى بذلك على شعب من الشعوب ولا تسـتبعد أمة من الأمم ولا تطمع فى توسعة حدودها، أو زيادة مسـاحة أرضـها أو تنمية ثروتها على حسـاب غيرها، فكل هذه المزاعم باطلة لا وجود لهـا، ولكن مصر حين تتمسك بالنيل الأعلى تحقق بذلك وحدة شعبها. فمصر والسـودان أمة واحـدة. وتحافظ على صـميم كيانها وتضحى بكثـير من مواردها وثروتها وجهودهـا. وأن حاجة هـذا الجـزء من الأرض إلى مصر لأعظم بكثير من حاجتها هى إليه

2. العمل على اسـتكمال اسـتقلال البلاد الشـامية على اختلاف أقسـامها. وإذا أصـرت لبنـان ومثيلاتها على المحافظة على اسـتقلالها فليكن ذلك لها حـتى يقنعها الـزمن وتثبت لها الحـوادث أن من خيرها بل من ألـزم اللـوازم لها أن تعـود إلى أحضـان أمها "سـورية الكـبرى" وأن ذلك لقـريب فنحن فى عصر الوحـدات القوية والكتل الشـعبية الجامعة – وما دامت سـتتفق مع غيرها من الشـعوب العربية على كل مقومات الوحدة العملية فحسبنا ذلك منها الآن ولعل من الخـير للمـؤتمر وللبلاد الشامية خاصة والعربية عامة ألا تجعل من هذه القضية عقبة تصطدم بها فى فـورة الشعور وثورة الحماسة حتى يفصل فيها الزمن والزمن جزء من العلاج.

3. العمل على حل قضية فلسطين حلا يتفق مع وجهة النظر العربية ويـؤدى إلى سـلامة هـذا الجـزء من الـوطن العـربى – وهو منه بمثابة القلب من الجسد – وإلى المحافظة كل المحافظة على أن يظل عربيـاً خالصا وإلى دفع العـدوان اليهـودى وذبذبة السياسة الدولية عنه بكل الوسائل، فإن العرب جميعاً وفى مقدمتهم أعضاء اللجنة يدركون مدى الأخطار العربية التى تهدد كبيان الأمة العربية وتحطم أمالها إذا استقرت قدم اليهود فى فلسطين. والشعوب العربية كلها قد وطدت العزم على أن تستنقذ فلسطين مهما كلفها ذلك من الجهود والتضحيات.

وإننا لنعطف على اليهود فى محنتهم ولكن ليس معنى هذا العطف أن يكون إنصافهم بظلم غـيرهم وإيـواؤهم بـإخراج سـواهم أو مضـايقتهم فى أوطـانهم. وفى ممتلكـات الـدول الحليفة وأراضـيها ما يتسع لاضـعافهم وما هو فى حاجة ماسة إلى كفايتهم ونشاطهم.

4. مساعدة بقية أقطـار الجزيـرة العربية "العـراق وملحقاتها – والمملكة العربية السـعودية وملحقاتها – واليمن وملحقاتها على اسـتكمال اسـتقلالها ونهضـتها ودفع الدسـائس السياسـية المختلفة عنها وبخاصة وهى الآن فى مهب عاصـفة قوية من التنافس الدولى الشديد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً هى أمامها أحوج ما تكون إلى من يشد أزرها ويبصـرها بمواقع الخـير والشر لحاضـرها ومسـتقبلها وليست هنـاك فرصة للنظر والاختيـار أبـدع ولا أوسع من هـذه الفرصة الـتى إن أفلتت اليـوم فلن تعود إلا بعد حين.

5. العناية بتحرير الأقطار العربية فى شمال أفريقيا وإدخالها فى دائـرة الوحـدة. فلوبيا بقسـميها "برقة وطـرابلس" يجب أن تعـود إليها حريتها واسـتقلالها وأن تظل قطراً واحداً تحت لواء حكومة من أهلها بعد أن زال عنها سلطان الغاصب المعتـدى وأن شأنها فى ذلك شـأن الحبشة سـواء بسـواء فـإذا كـان البريطـانيون قد حـاربوا وحدهم الطليان حتى أجلوهم عن الحبشة ثم سلموها موحـدة مسـتقلة لإمبراطورها السـابق فـإن من واجبهم وقد طـردوا هـذا العـدو البغيض عن لوبيا بمسـاعدة أهلها ومساعدة الشـعوب العربية لهم فى ذلك أن يعيـدوها لأهلها موحـدة مسـتقلة كـذلك وليس هناك ما يـدعو إلى تمزيق وحـدتها وتقسـيم أرضـها ومعاملتها بغـير الأسـلوب الذى عوملت به سابقتها.

وتـونس والجزائر ومـراكش بلاد عربية وقعت تحت الاسـتعمار الفرنسى باسم الحماية تارة والاستعمار تـارة أخـرى وقد جاهـدت فى سـبيل حريتها واسـتقلالها جهـاد الأبطال ولم تعترف بهذه الأوضاع التى رسمتها لها السياسة الاسـتعمارية فى يـوم من الأيام. ثم ساهمت أخيراً فى المجهود الحربى للحلفاء مسـاهمة عظيمة أطلقت ألسن زعمـاء الأمم المتحـدة بالثنـاء عليها وسـجلها المسـتر تشرشل فى خطبة بالإعجـاب والأكبـار، وما كـان جيش فرنسا الحـرة الـذى حـارب فى صـفوف الحلفـاء فى شـمال أفريقيا وفى إيطاليا وفرنسا إلا هـؤلاء الجنـود البواسل من أبنـاء هـذه الـديار العربية الصميمة ومن واجب المؤتمر العربى أن يطالب بحقوق هـذه البلاد كاملة وأن ينقذ من براثن الظلم والعدوان عشرين مليونا من العرب لا زالوا متمسكين بعروبتهم مطـالبين بحرية بلادهم مهما أراد المستعمرون أن يظهروهم بغير هذا اللـون – لقد حـاول هـؤلاء الغاصبون خلال هذه السنوات الطوال أن ينالوا من عـروبتهم بالثقافة الأجنبية ومحاربة اللغة العربية والغـزو الاجتمـاعى، وأن ينـالوا من وطنية هـؤلاء العـرب المجاهـدين بالتجنيس وبالإرهاب والضغط الشديد، وأن ينالوا من دينهم بالتبشير ومقاومة الأوضـاع الإسـلامية بمثل الظهـير الـبربرى فلم يُجْـدِهم كل ذلك نفعـاً وما زال شـمال أفريقية وسيظل عربيا مسلما.

ونـرى أن من واجب اللجنة أن تـدعو إلى المـؤتمر ممثلين من أبنـاء هـذه البلاد ومن أبناء فلسطين ليبسطوا أمامه قضاياهم ومطالبهم.

وتحدثت المذكرة عن **"الكيـان السياسى للأمم العربية المتحـدة"** ولاحظ كلمة "الأمم العربية" وليست "الدول العربية" فقالت:

وتأتى بعد الخطوة السـابقة خطـوة ثالثة يكمل بها بنـاء الوحـدة العربية تلك هى لون الكيان السياسى العام لهذه الحكومات العربية المتحـدة – ولا نظن أن الـوقت قد حان أو أن الظروف قد تهيـأت لمثل هـذا البحث كما لا نظن أن من مهمة المـؤتمر أن يختار شكل الحكومات فإن ذلك متروك للشعوب نفسـها يتخـير كل شـعب منها لنفسه النوع الذى يريد ولكن الذى يجب أن يعمل له المؤتمر بهذا الخصوص ويقرره من الآن:

أن يحتفظ بالحكومـات العربية المسـتقلة بحق التمثيل فيما إذا أجـرى اسـتفتاء للشعوب العربية المحررة أو التى لم تستقر حكوماتها الوطنية بعد.

وإن يقــرر من الآن لونا من ألــوان الارتبــاط السياسى بين الحكومــات العربية كمجلس استشــارى أعلى تســتطيع بواســطته أن يتصل بعضــها ببعض بطريقة دائمة منظمة ويكون أساساً لوحدة أتم وأكمل فى المستقبل إن شاء الله

إن مطالعة هـذه النبـذات من مـذكرة الإمـام البنا توضح الفـرق بين فكر علمى منظم هادئ، وبين شعارات موثنة وجماهير هادرة وغوغائية بالروح بالدم الخ...

موقف الحكم الإسلامى من الأقليات:

إن النقطة الحقيقة الــتى تســتحق المعالجة هى موقف الحكم الإســلامى من الأقليات غير الإسـلامية فى الـوطن العـربى.. فقد آثر البعض تجاهلها على أسـاس أنها حساسة وشائكة، ولم يحسن بعض الدعاة الإسلاميين فهمها فعرضـوها بطريقة شـائهة فزادوا الطين بلة.. بينما جعل آخرون من هذه النقطة "البعبع" الذى يخوفون به الناس من الدعوات الإسلامية، والشبح الذى يلوحون به للحكام فيتملكهم الذعر بــدعوى شق وحدة الأمة وإضرام الفتنة الطائفية، وهذه مزاعم يجب أن تجابه بشجاعة فليس هنـاك من الموضـوعات ما يفـرض على الكـاتب الصـمت أو ما يثـير فى نفسه الخـوف فإنما الأمور حق أو باطل.. خطأ أو صواب..

لقد كان محور التخريب الأوربى من قديم يقوم على **خط رئيسى هو توهين المقــوم الإســلامى لــدى المســلمين وتعزيز المقــوم المســيحى لــدى المسـيحيين.** وفى الـوقت الـذى كـانت أوروبا تعيب على المسـلمين جعل الإسـلام مقوماً من مقوماتهم القومية فإنها كانت تدفع المسيحيين لاعتبار المسيحية هى مقـوم حيـاتهم الوحيـد، كمحاولـة تـأزيم العلاقة ما بين المسـلمين والمسـيحيين فى الـوطن العـربى وإقحـام طـابع من التعصب الـذى اشـتهرت به أوربا وإيجـاد ثلمة بين الأكثرية المسلمة والأقلية المسيحية.

وتفاقمت هذه القضـية نتيجة لعـدد من العوامل منها تجاهل القيـادات السياسـية فى الوطن العربى للإسلام كقاعدة المجتمع العربى، وجهل قيادات الدعوات الإسلامية بالموقف الأمثل.. وهذه المحصـلة المؤسـفة ما بين الجهل والتجاهـل.. أعطت القضـية حساسية مرضية وسدت الطريق أمام الحل السليم

بالإضافة إلى هذا فـإن الجيـوب الاسـتعمارية الباقية فى الـوطن العـربى أخـذت تضرم فى هذه القضية وتغرس فى المسـيحيين عـداوة المسـلمين وتصـورهم بصـورة

المتعصـبين القسـاة.. وهـذا أمر ملمـوس وإن عسر إثباته بمقـررات تحريرية لأن مثل هذه الاتجاهات تدخل فى باب التاريخ غير المكتوب والتواصى السرى.. ولكن يمكن مع هذا العثور على بعض الشـواهد كـالتى رواها الأسـتاذ أسـعد داغر فى كتابه "مـذكراتى على هـامش القضـية العربيـة" عنـدما كـان طفلاً صـغيراً فى مدرسة عينطـوراً للأبـاء العـازاريين فى لبنـان ودخل المدرسة طفل صـغير من أسـرة مسـلمة يـدعى ريـاض الصـلح، وقـامت صـداقة وطيـدة بين الطفلين فى الدراسة واللعب ولاحظ ذلك نـاظر المدرسة وهو فرنسى.. فنادى أسعد داغر وسأله:

- مع من تلعب.
- مع الصلح.
- لماذا لا تلعب مع غيره.
- ألعب معه ومع غيره.. والآن كنت ألعب معه.

فأمسك بشعر رأسى وشده وهمس فى أذنى..

- كيف تفعل هذا وأنت مسيحى.
- وهل فى ذلك ضرر.. وما هو..
- أنت لا تعرف على ما يظهر.. اقترب..

ودنوت منه فقال بصوت خافت كمن يفشى سراً.

- ألا تعرف أن الصلح هذا مسلم.
- ما معنى مسلم يا أبت ؟
- ألم تذهب قط إلى بيروت يا بنى..
- ذهبت إليها مرة برفقه والدى.
- المسلم فى بيـروت هو الذى يطعن المسيحى.. بالخنجر من خلف[(20)] ".

وصدق الطفل البرىء هذا الادعـاء وجعل لا يلعب أو يسـير مع الصـلح إلا بعد أن يتخذ احتياطات حتى لا يطعنه الصلح بالخنجر "بأن أجعل كتفى دائمـاً وراء كتفه لكى لا يستطيع أن يغدر بى ويطعننى فى ظهرى".. حتى فند له هذا الاتهام معلم آخر.

فلنوضح أولاً: أن أى حكم إسلامى لابد وان يكـون أقـرب إلى المسـيحية من أى حكم آخر حتى لو كان هذا الحكم الآخر مسـيحيا، ذلك أن الإسـلام هو الـدين السـماوى الوحيد الذى يعترف بنبوة المسيح وبتولة العذراء والإسلام يقر أن المسيح جاء بمعجزة وحمل كتابـاً سـماويا مقدسا هو الإنجيل والإيمـان به توجيه إلهى للمسـلمين تضـمنه القرآن أكثر من مرة فموقف الإسلام من المسيح لا يمكن أن يؤذى إحساس مسـيحى لأنه وإن رفض الاعتراف بالمسيح ابنا لله.. فإنه يقدم له الاحترام الجدير برسول كريم منزل وحامل لأحد الكتب المقدسة الثلاثـة، وينظر إلى السـيدة مـريم العـذراء كسـيدة نساء العالمين.

---

[20] **(20) مذكراتى على هامش القضية العربية ص20 .**

ومن ناحية أخــرى فــإن السياسة المقــررة للحكم الإســلامى تجــاه المســيحية واضـــــــحة وهى منح الحرية الدينية والاجتماعية وما يتعلق بالتقاليد الخ... لهم حسب اعتقــادهم، وحــتى فى الحــرب الــتى يســلم الجميع لها بالاســتثناء والــتى تفــرض كل الحكومات فيها أحكاماً عرفية وتقيد الحريات فإن توجيه النــبى صــلى الله عليه وســلم للجيوش الإسلامية صريح فى ترك الأديرة والرهبان وعدم المساس بها. ولم يحدث أن شكا المسيحيون فى ظل أى حكم إسلامى جنفا أو حيفا إلا إذا صدر من حــاكم شــاذ لا يسلم المسلمون أنفسهم من شذوذه أو عسفه.

والقول بأن الإسلام أفضل للمسيحيين من حكم مسيحى حقيقة مقــررة وليست فرضا نظرياً وقد حدثت بالذات بالنسبة لمصر.. فقد اضطهد الرومــان وهم مســيحيون الأقباط لاختلافهم وإياهم فى المذاهب وألجئوا البطريرك إلى الفرار وعندما جاء عمرو بن العاص منح الأقبــاط حــريتهم الدينية الــتى لم يتمتعــوا بها فى ظل الحكم الرومــانى المسيحى وعاد البطريرك مكرماً، وكان موضع الاحترام والتبجيل والمشاورة من عمرو بن العاص. وفى الدول الأخرى استأصل الفرنسيون الكاثوليك الفرنســيين الهوجونــوت فى مذبحة سانت بارثلمى، وأوقع الإنجليز البروتسننت بالإنجليز الكاثوليك من المــذابح ما جعل الملكة مــارى تلقب بالدموية وما ظلت بقايــاه حــتى الآن فى ايرلنــده، ويمكن ضرب أمثله أخرى عديدة فى ألمانيا أو أسبانيا أو روسيا أو غيرها من الدول الأوربية.

ولنوضح ثانيا أن الشك فى عدالة الإســلام أو الضـــيق بحكمه لم يكن فى أغلب الحــالات – إن لم يكن فى كلها – صــادراً من المســيحيين العــرب، وبقــدر ما يكــون المســيحيون عربا تســتقيم العربية على ألســنتهم بقــدر ما يكــون التجــاوب بينهم وبين إخوانهم المسلمين، وبقدر ما لا يتــأثرون بالــدعايات الأوربية أو الحضــارة الأوربية الــتى لم تعرف التســامح، ومصــداق ذلك ســلبا وإيجابا موارنة لبنــان.. وقبط مصر إن موارنة لبنان الذين تأثروا بالفرنسية حــتى ســلختهم من العربية وأصــبحوا يتحــدثون الفرنســية ويتأثرون بالمدنية الفرنسية أكــثر مما يستشــعرون الحضــارة العربية أصــبحوا ينظــرون إلى المسلمين نظرة الشك والعداء وعندما قامت الحرب الأهلية ارتكبــوا من الفظــائع ما تقشعر له الجلود.. أما قبط مصر الذين عايشوا الفتح الإسلامى منذ بدايته واندمجوا فى المجتمع العربى فإنهم لم يستشعروا أبداً أية حساسية نحو الحكم الإســلامى أو أى وحشة أو غربة بينهم وبين إخــوانهم المســلمين وقد كــان ولا يــزال التقــدير متبــادلاً والمشاركة العاطفية فى المناسبات الدينية تقليدا مقررا وسائداً.

وقد وجهت مجلة الدعوة فى عددها الصادر فى فبراير سنة 1977 ســؤالين إلى عدد من أقطاب الطائفة المسيحية (على اختلاف مذاهبها) هما:

1- إذا كان الإسلام والمسيحية ملتقيين فى تحــريم الزنا – مثلاً – ومحاربتــه، فهل عندكم مانع فى تطبيق حد الزنا وبقية الحدود الإسلامية الأخــرى على من اســتوجب إقامتها عليه فى المجتمع المصــــرى. وهل تــــرى فى تطبيقها ما يمس حقـــــوق المسيحيين أو يضايقهم ؟.

2- من خلال دراستكم للتاريخ ماذا ترون فى حكم الإسـلام بالنسـبة للاقليـات من ناحية العبادة والأموال والأعراض ؟.

عن السـؤال يجب الكاردينـال أصـطفانوس بطريـرك الأقبـاط الكاثوليك.

"الأديان السـماوية تشـير إلى تحـريم القتل أو الزنا وإلى المحبة والمعـروف أن من يحب الله يحب أخاه. ومن يـدعى أنه يحب الله ولا يحب أخـاه كـاذب فالقتل والزنا والسرقة إلى آخر المنكـرات ضد المحبة لأن الله خلق الإنسـان ليكـون مسـتقيما غـير منحرف، ويستفيد من التعـاليم الإلهية ولـذلك فالـذى يشذ عن نظـام الله وتعاليمه بعد أن تكفل له أسـباب العيش ومسـتلزماته – يجب أن تطبق عليه حـدود شـريعة الله ليرتـدع ويكـون عـبرة لغـيره وحـتى لا تعم الفوضى عنـدما يقتل أحد أخـاه ولا يقتل أو يسـرق ولا تقطع يد أو يـزنى ولا يقـام عليه حد الزنا – وهـذا ما وجـدناه فى القـوانين الوضعية التى تجامل النـاس وتلتمس لهم مختلف الأعـذار مما جعل المجتمع غـير آمن على نفسه أو ماله أو عرضه وأعود فأكرر أن تطبيق حدود الشريعة الإسلامية ضرورى على الشـخص وعلى المجتمع حـتى تسـتقيم الأمـور وينصـلح حـال النـاس. وليس فى تطبيقها أبداً ما يمس حقوق المسيحيين أو يضايقهم".

كما أجاب غبطة الكاردينال عن السؤال الثانى فيقول:

"إن الذى يحترم الشـريعة الإسـلامية يحـترم جميع الأديـان، وكل دين يـدعو إلى المحبة والإخاء وأى إنسان يسير على تعاليم دينه لا يمكن أن يبغض أحدا أو يلقى بغضاً من أحد ولقد وجدت الديانات الأخـرى – والمسـيحية بالـذات – فى كل العصـور والـتى كان الحكم الإسلامى فيها قائماً بصورته الصادقة ما لم تلقه فى ظل أى نظام آخر من حيث الأمان والاطمئنان فى دينها ومالها وعرضها وحريتها"..

أما الأنبا غريغوريـوس أسـقف البحث العلمى والدراسـات العليا اللاهوتية بالكنيسة القبطية وممثل الأقبـاط الأرثـوذكس فقد أجـاب عن السؤال الأول السابق قائلاً:

"إن تطبيق أحكام الشـريعة الإسـلامية فى مصر أمر لا اعـتراض عليه فالشـرائع السماوية نور وهداية للبشر ونحن نؤمن أن الـدين لم يعط للنـاس إلا ليكـون عونا لهم لتصـير حيـاتهم به أفضل مما تكـون بغـيره والهـدف من الـوحى الإلهى تحديد الطريق الذى يساعد الإنسان على أن يعيش بمبادئ الدين سعيداً كريماً".

وأضاف الأنبا غريغوريـوس قـائلاً "رغم أن الديانة المسـيحية ليس فى نصوصـها قطع يد السارق أو قتل القاتل الخ...

إلا أننا كمسيحيين لا نعارض فى تطـبيق حـدود الشـريعة الإسـلامية فى مصر إذا كانت هذه رغبة إخواننا المسلمين وفى نظرى أن هذا لن يتحقق كما يجب إلا إذا ضمنا

للقضـــاء ســـيادته الكاملة الـــتى تعطى له حرية التحقيق الشـــامل والتقصى للجريمة وأسبابها".

أما السؤال الثانى فيجيب عنه أسقف البحث قائلاً:

"لقد لقيت الأقليـات غـير المسـلمة والمسـيحيون بالـذات فى ظل الحكم الـذى كـــانت تتجلى فيه روح الإســـلام الســـمحة كل حرية وســـلام وأمن فى دينها ومالها وعرضها".

أما القس برسـوم شـحاته وكيل الطائفة الإنجيليـة فى مصر فكـان رده على السؤال الأول "أن الأديـان كافة تحـرم الجريمة والنفس الإنسـانية يجب أن تعالج من الوقـوع فى الجريمة وقبل الوقـوع بكل وسـائل الإصـلاح والتربية الجـادة القائمة على إحياء القيم الروحية وسريانها فى النفوس والارتبـاط بالشـرائع السـماوية فى إرشادها وهديها أما النفوس المتحجرة والقلوب القاسية التى لا يجـدى معها النصح والإرشاد والتوجيه فهذه تعتـبر شـاذة وجرثومة فى جسم المجتمع يجب إنقـاذه منهـا.. وهنا لابد من تطـبيق حـدود الشـريعة الإسـلامية لتحقيق العدالة والسـلام والحب فى المجتمع. ويُطاَلب فى نظري بدقة التنفيذ الجاد لهذه الحدود وزير الداخلية الـــذى يمثل سلطة الأمن شخصياً. مع ضرورة أن تعود للقضاء سـيادته وحرمته الـتى تعطيه الحرية الكاملة فى البحث والتقصى عن كل حادثة أو جريمة" انتهى.

لم يقدم هؤلاء السادة شـهادتهم تلك مجاملـة، أو موافقـة، أو مصـانعه، أو دفعـاً لحـــرج كما قد يظن البعض، لأن المبتـــدئين فى المســـيحية ناهيك بأقطـــابهم يعلمـــون كلمـتى المسـيح "أعط ما لقيص لقيصـر، وما لله للـه" و"مملكـتى ليست على هـذه الأرض" كما يعلمـون بتوجهـات قطـبى المسـيحية بـول وبطـرس للمسـيحيين بـالتزام الطاعة للحكام غير المسيحيين (وقد جاء توجيه بول عندما كان القيصر نـيرون حاكمـاً) وإخلاص الخدمة فى الدول الـتى يعيشـون عليها ما لم تتـدخل فى ديـانتهم وعقائـدهم. وقد كـان الخط المقـرر للكنيسة المصـرية الأرثوذكسية هو هـذا وعـرف كبـار بابواتها بكياسة وذكاء بحيث اكتسـبوا محبة حكـام مصر الـذين اسـبغوا عليهم الحماية وتـبرعوا لهم بأراضى وأموال طائلة واعتمدوا عليهم بدءاً من محمد على فى عمليات الصـــيرفة الداخلية التى توارثها الأقباط. وظل ذلك حـتى ولى كرسى الكنيسة الأرثوذكسـية البابا شنودة الذى كان لديه طموح للنهضة بالكنيسة القبطية والطموح بصفة عامة له طبيعة دنيويـــة. وقد جـــاء توجيه القـــرآن للرســـول أن لا يطمح إلى الاســـتكثار من الأتبـــاع أو الحـــرص على إســـلام شخصـــيات هامـــة، كما وجهه لأن لا يبخع نفسه إن لم يؤمنـــوا بالإسلام. لأن الهداية من الله، والله تعالى أدرى بالمهتـدين. وكـانت نتيجة طمـوح البابا شنودة أن اصطدم مع الرئيس السادات الذى أمر بإبعاده إلى أحد الأديـرة وكـانت تلك سابقة غير معهودة، فقد كان الخديوى هو الذى أعاد البابا كيرلس الخامس عندما قـــرر المجلس الملى إبعـــاده، ولم يقبل البابا أن يعـــود إلا بعد أن تأكد من أن الأمر قد صـــدر من الخديوى.

وكـان من نتيجة سياسة البابا شـنودة أن "عقد الأقبـاط فى الإسـكندرية فى 17 ينـــاير (كـــانون الثـــانى) 1977، أول مـــؤتمر من نوعه فى تـــاريخ مصر الحـــديث، فى

الإسـكندرية حضـره البابا شـنودة، الـذى اكتسب منذ انتخابه للكرسى البـابوى سـنة 1971، شعبية كبيرة بين الأقباط. وقد لعب دورا بـارزا فى تنظيم هـذا المـؤتمر، الأنبا صموئيل، المسئول عن العلاقات الخارجية للكنيسة القبطية.

وبحث المــؤتمر "حرية العقيــدة" و"حرية ممارسة الشــعائر الدينيــة" و"حماية الأسرة والزواج المسيحى" و"المساواة وتكافؤ الفرص وتمثيل المسيحيين فى الهيئات النيابية" و"خطر الاتجاهات الدينية المتطرفة".

وقدم المؤتمر إلى السلطات عدة مطالب منها: "إلغاء قانون الـردة" و"العـدول عن التفكير فى تطبيق قوانين مستمدة من الشريعة الإسـلامية على غـير المسـلمين" و"إلغاء القوانين العثمانية التى تقيد حق بنـاء الكنـائس" و"اسـتبعاد الطائفية فى تـولى وظائف الدولة على كل المستويات".

ومن المؤسف أن هـذه السياسة كـانت فى أصل مواقف مجموعة من الأقبـاط هاجروا إلى كندا والولايات المتحـدة وجعلـوا همهم إشـاعة اضـطهاد الأقبـاط فشـوهوا سمعة بلادهم بالباطل وأساءوا إليها.

* * *

والصـورة المثلى إذن لمعالجة هـذه القضـية هى اسـتبعاد الحساسـيات تمامـاً وإطـراح التجاهل وإقامة العلاقة بين المسـلمين وغـير المسـلمين فى الـوطن الواحد على أساس المساواة التامة فى الحقوق والواجبـات وعلى التقـدير المتبـادل وهو أمر يسمح به بل يحض عليه الإسلام ولا يوجد حساسية أو غضاضة بالنسبة لغير المسـلمين على ما أوضـحنا وأن المواطنة لا يمكن أن تكـون إسـلامية، أو مسـيحية وإنما هى تتبع الوطن، أى الأرض والمكان..

إن من الخطأ الجسـيم أن نعطى القضـية حجما أكـبر مما لها وأن نحـرص على نفى مشكلة غـير موجـودة بالحـديث الممل عن الصـليب والهلال، الكنيسة والمسـجد، "رجال الدين" من الأقباط والمسلمين.

ونحن نؤمن إيمانا عميقاً بأن هذه الظاهرة التى هى محل الاستحسان والتشجيع ليست فى مصـــلحة الطائفة القبطية بالدرجة الأولى، لأنها تغريها – أو حـــتى تغويها – بتطلعات قد تجاوز ما توجبه طبائع الأمـور، كما أنها تسـىء إلى فكـرة وحـدة الأمة من حيث تريد لها الخــير، لأنها تــوحى كما لو أن مصر مثل قــبرص أو لبنــان. وكما لو أن الطائفة القبطية تعادل أو تقارب الأغلبية الساحقة المسلمة، وكما لو أن هـذه البلاد لها دينان رسميان يمثلان على قدم المسـاواة فى كافة المحافل والمناسـبات، وليس هـذا من الوحدة فى شىء إنه يضرم الازدواجية ويغذيها ويصيب الوحدة فى الصميم..

فهل فكر المسئولون فى هذا ؟ هل فكـروا فى أن حرصـهم على العدالة للأقلية يوقع الظلم بالأكثرية لأنهم يساوونها بالأقلية؟ هل فكروا فى أنهم فى ادعائهم الوحـــدة الوطنية يعمقون مشاعر الطائفية..

إنه لمن المهم أن يعلم الأقباط إنه لا يمكن أن يأكلوا الكعكة، وفى الوقت نفسه يحتفظون بهـا، فـإذا أرادوا التركـيز على صـفتهم الطائفية الخاصـة. فـإن هـذا سـيودى بدعوى الوحدة القومية. وإذا أرادوا الوحدة القومية فعليهم أن يحصروا صفتهم الخاصة فى إطار الدين لا الدولة.. وأن يستبعدوا الحساسية نحو المسلمين.

إن المسـيحية هى دين الحب، والحب ليس بـالطبع هو حب الـذات، وإلا لأصـبح أنانية، وإنما هو حب الآخر والحساسـية تصب فى الـذات، فيفـترض – حـتى من الناحية المسيحية – التجرد منها، وقد كان هذا هو مسلك الكنيسة المصـرى التقليـدى وسياسة آبائها الكرام حتى غير هذه السياسة الأنبا شنودة.

إن تجـارب التـاريخ توضح لنا أن الممـالأة، أو المجاملـة، أو التنـازل من جـانب الأغلبية فى حقوقها المشروعة يمكن أن توجد مشكلة مستعصـية فى المسـتقبل تبـوء بائمها الأقلية الـتى أريد مجاملتها والوقـائع الاجتماعية والتاريخية ليست سـراً، ولا تثـير حساسـية. فهـذا البلد دينه اليـوم الإسـلام.. وأمجـاده وتاريخه وتشـريعه الخ... كلها اسـتمدت من الإسـلام طـوال ألف وأربعمائة سـنة. والأغلبية السـاحقة من سـكانه مسـلمون. وإلى جـانب هـذه الأغلبية توجد أقلية قبطية لها وزنها ولها طبيعتها الخاصة الـتى لا تعزلها عن الأغلبية المسـلمة ومن حق الطائفة القبطية أن لا تضـار فى حريتها الدينيـة، وأن يتمتع أفرادها بكافة حقـوق المواطـنين، وهـذا أمر يوجبه الإسـلام وتكفله الدولة الإسلامية باعتراف الأقباط أنفسهم وبمنطق الوقائع.

ولكن هـذا كله يجب أن لا يكـون سـببا فى أن يستشـعر الأقبـاط حساسـية إزاء الإسلام، ومن غير المستساغ مثلاً أن يشير كاتب قبطى إلى أن السـادات أضـاف إلى اسمه الشائع "أنور السادات" كلمة "محمد" التى تسبق أنور السـادات ويـرى فى ذلك مؤشراً له دلالة تنعكس عليهم. وقد لا نسـتطيع أن نجـردهم من حساسـية ولكن يجب أن لا تبلغ هذه الدرجـة، ولا تكـون على حسـاب المقـوم الإسـلامى أو سـببا فى تمييعه وتوهينه لأن الإسـلام لا يضـير الأقبـاط فى شـىء على العكس إنه هو الـذى يقـرر لهم المواطنة كاملـــة، ويحمى حقـــوقهم الدينية الخاصة من إرادة الأغلبية بحكم القـــرآن، والمقـوم الإسـلامى بعد هو جـذر المجتمع المصـرى فتوهينه لن يفيد الأقبـاط وسيضر المسلمين وليس هذا من السياسة الرشيدة الواقعية الشجاعة فى شىء.

الفصل الثالث

الموقف من الاشتراكية

تتفق كل المــذاهب الاشــتراكية المعروفة فى أنها أوروبية الأصــل، بمعــنى أنها نبتت فى التربة الأوروبية وتعود جذورها وملابسـاتها إلى النظم الاقتصـادية والسياسـية والاجتماعية الأوروبية. فتصويرها للإقطاع مثلاً تصوير أوروبى خالص وفكرتها عن الدين هى الفكرة عن الكنيسة المسيحية الأوروبيـة، والرأسـمالية فيها هى الرأسـمالية الـتى قامت فى إنجلترا من النصف الثانى للقرن الثامن عشر.. ولما كـان معظم المفكـرين الاشتراكيين الأوربيين كبقية الأوروبيين جهلة بالإسلام وتاريخ الشرق العربى والإسـلام، وأن تـاريخ الحضـارة كما تصـوروا يبـدأ من الحضـارة اليونانيـة، فالرومانيـة، فحركة الرنيسانس فإنهم تصـوروا أن تنظـيرهم للاشـتراكية تنظـير عـام ينطبق على البشـرية جمعاء وكل دول العالم – كما وجدوا فى الفلسفة الجدلية عمادا يساند دعواهم.

وعندما بدأ ماركس فى وضع اشتراكيته كان أمامه:

1- الاقتصاديات البريطانية التى قـام بها آدم سـميث وريكـاردو ومـالتس وغـيرهم وتوصلت إلى عدد من المبادئ الاقتصادية الهامة كاعتبار العمل أصل القيمة.

2- الفلسفة الألمانية التى كانت تمر بمرحلة من النشـاط والازدهـار وتمثلت بوجه خـاص فى هيجل وإحيائه لفكـرة "الـديالكتيك" اليونانية القديمـة، أو كما يسـمونها "الجدلية".

3- التجـارب والمحـاولات والأفكـار الاشـتراكية الفرنسـية الـتى حـدثت كـرد فعل للثـــورة الفرنســية وما أحدثته من خيبة أمل نتيجة لأنها كـــانت ثـــورة البورجوازية الناهضة أكثر مما كانت ثورة الشعب العامل وعبرت عن ذلك كتابات سان سـيمون، ولابلان وفورييه وبرودون ومحاولة بابيف وجماعة العدول..

هذه هى المصادر التى تذكرها الكتب الاشتراكية والتى كانت تحت يدى مـاركس عنـدما بـدأ عملـه، ولكن هنـاك مصـدراً آخر قلما تعطيه الكتب الاشـتراكية حقه من الأهمية، هو الدراسـات البيولوجية لتطـور المجتمع الـتى وصـلت إلى ذروتها فى كتـاب "داروين" "أصل الأنواع" وأعطت ماركس أحد المفاتيح الرئيسية فى فكرته عن الصراع ومكنته من نقله من مجال "الأحياء" إلى مجال "الإنتاج".

بالنسـبة للملابسـات الـتى مـرت بالشـيوعية، وأنها ولـدت ولادة الموتـورين فى معسكر الحرب الطبقية، ونظرا للمـزاج النفسى للمفكر الـذى وضع خطوطها النظرية وظروف حياته، فقد سرى فيها شـنآن العـداوة مسـرى الـدم. وأصـبحت نوعا من آلهة الانتقـام تعمل بالكيد والتـآمر عند الضـعف والبطش والسـحق عند القـوة وانتفت منها كلية فكرة الأخلاقيات أو الآداب.

وإلى هـذه الحقيقة تعـود غربة الاشـتراكية عن البيئة العربية أو الشـرقية، وأنها تتحدث برطانة غـير مفهومـة، وتعتمد على تطـورات وملابسـات لم تحـدث – بالصـورة الـتى تعرضـها – فى الشــرق. ومن هنا جــاء تخلخلهــا، وأن دعاتها الحقيقـيين هم من الأجانب، أو من العرب الذين تشربوا الثقافة الغربية أكثر مما تشـربوا الثقافة العربيـة، أو من اليهـود، وحـتى عنـدما أدت عوامل معينة لظهـور حكم شـيوعى فى دول عربية وإسلامية. فإن هذا لم يمس نبض الجماهير ويكسب تجاوبها القلـبى واقتصر الأمر على الشـلة الحاكمة الـتى تمسك قبضـتها على مقـررات الدولة ومواردها من ناحيـة، بينما

تكتسب تأييد الجيش الذى يغلب أنه كـان وسـيلتها للحكم عن طريق انقلاب عسـكرى. وبهذا يتوفر للدولة ذهب المعز وسيفه وتحكم بهما، ولكن بشكل جديد.

وهـذا لا ينفى أن الاشـتراكية – خاصة قبل أن تتـورط فى السـلطة وديكتاتوريتها الكريهة – مثلت الضمير الأوروبى، فى تلك الفترة الــتى تخلت فيها الكنيسة عن دورها الإنسـانى، أو ضـعفت عن القيـام بـه، وعنـدما انحـاز علمـاء الاقتصـاد والسياسة إلى الرأسمالية الصاعدة ورأوا أن تعاسة العمال هى قسمتهم فى الحياة.

وفى تاريخ الاشتراكية وتطورها يجب التفرقة بين مرحلتين: المرحلة الأولى التى كانت الاشتراكية فيها دعوة مفتوحة أسـهم فيها عـدد كبـير من المفكـرين فى إنجلـترا وفرنسا وألمانيا والمرحلة الثانية التى بدأت بمـاركس وختمت بليـنين، والـتى يمكن أن نسـميها المرحلة الماركسـية الـتى اتسـمت بالاقتصـار على الفكر الماركسى باعتبـاره "الاشتراكية العلمية" وأن ما عداه اشتراكية مثالية أو "طوبية".

فى المرحلة الأولى كانت الاشـتراكية ملاذاً فكريـاً يلـوذ به كل الأحـرار وكل ذوى القلوب والضمائر التى تعـنى بالقضـية الاجتماعيـة، ولعل أبـرزهم كـان الإنجلـيزى روبـرت أوين الـذى بـدأ فى صـباه عـاملاً ثم أصـبح صـاحب عمل ولكنه صـفى أعماله كصاحب عمل ليقود أكبر تكتل عمالى شهده القرن التاسع عشر وهو الاتحاد التضامنى الأعظم فى إنجلترا، وليبدأ أول تجربة عملية لتحقيق قـدر من العدالة للعمـال فى رفع الأجـور وتقصـير سـاعات العمل وتثقيف العمـال، ثم ابتـدع فكـرة التعـاون بـديلاً عن الرأسمالية المتنافسة وحاول أن يوجد مجتمعاً تنتفى فيه سوءات المجتمع الرأسـمالى فى بريطانيا، وفى الولايات المتحدة وكان هو فى بعض الأقوال أول من اسـتخدم كلمة "اشــتراكية". وظهر فى فرنسا مفكــرون كبـار مثل "بــرودون" وفورييه و"لابلان" كما ظهر فى ألمانيا لاسـال، وبصـفة عامة فـإن الاشـتراكية فى هـذه المرحلة كـانت تمثل العدالة وإنصاف العمال من الاستغلال الرأسمالى بمختلف الوسائل

وفى المرحلة الثانيـة: ظهر مـاركس، كـان عبقريا موسـوعى الثقافة (كـان يحفظ شكسـبير ونـال درجة الـدكتوراه عن الأدب اليونـانى، كما كـان تلميـذا لهيجيـل) واستطاع ماركس أن يتوصل إلى صيغة علمية حسابية يمكن بها ضبط "فائض القيمـة" التى يستحوز عليها الرأسمالى وأدت به طبيعته التنظيرية لأن يبـدع فلسـفة "الماديـة" الجدلية والمادية التاريخيـة، ولأن يعتـبر أن طـرق وملكية وسـائل الإنتـاج هى العامل الحاسم فى تطور التاريخ وأن كل نظام إنتـاجى يلد نقيضه طبقـاً للجـدل الهيجلى وأن الرأســمالية ســتوجد الاشــتراكية الــتى تقضى عليها (أى على الرأســمالية) بثــورة البلوريتارية. باختصار جعل من الاشتراكية "نظرية محددة محكمة" بعد أن كانت دعـوة مفتوحة حرة..

إن حديثنا عن الاشتراكية يتركز حـول هـذه المرحلـة، أعـنى التنظـير الماركسى والتطبيق اللنينى لأنهما هما ما يخطر فى ذهن الناس عندما يقـال الاشـتراكية، ولأن ما ذهب إليه الاشتراكيون قبل ماركس قد عفى عليه الزمان، ولم يعد يذكر بين الجمـاهير وإنما تحتفظ به صفحات التاريخ.

ولما كان المجال ليس مجـال شـرح الماركسـية وتطبيقها اللنيـنى، ولكن موقف دعوة الإحياء منه فإننا نوجز ما يختلف وما يأتلف من الماركسـية مع الإسـلام كما تـراه دعوة الإحياء.

عناصر الاختلاف

أولا: رفض فكرة الألوهية والخلق:

عندما جعل ماركس المادية هى الأصل الذى تنبثق عنه جدليته فإنه اسـتبعد الإله الخالق. وأصبح لا يرى فى فكرة الألوهية سوى خرافة عريقة أثيرة إلى قلـوب النـاس. وهذه الواقعة تمثل النقص الرئيسى فى الشيوعية. وهى أصل كل انحرافاتها، ولكن قد يكون من حق "الحقيقة كلها" أن نشير إلى الملابسات التى سـاعدت على وقـوع هـذا الخطأ. إن اللاهـوت الكنسى والبنـاء المعقد للتثليث وتشـخيص "الإلـه" "ابن اللـه" "أم الله" جعل المفكـرين والعلمـاء فى المجتمع المسـيحى ينفضـون اليـدين من التصـوير الكنسى للــه، ومن هــذه المتاهــات الثيولوجية الــتى لا يكــون الفيصل فيها للعقل أو الفطرة، ولكن اللاهـوت الكنسـى، كما أن الكنيسة وقفت باسـتمرار إلى جـانب النبلاء والملوك وكـان للأسـاقفة مقاعـدهم فى مجلس اللـوردات جنبا إلى جنب كبـار الملاك والإقطاعيين وعندما قامت ثـورة الفلاحين فى القـرن السـادس عشر فى ألمانيا وقف مـارتن لـوثر رائد الكنيسة البروتسـتانتية ضد الفلاحين وأوصى النبلاء بقمع الثـورة بكل قسوة. وعزز من وقوف الشيوعية من قضية الدين هذا الموقف أن الأوربيين جميعـاً لا يعرفـون إلا قليلاً – إذا عرفـوا – عن الإسـلام وتصـويره المعجز للألوهيـة. لأن الحـرب الصليبية عزلت أوربا عنه..

على أن هذا وإن كان يفسر الجـانب الطـارئ على القضـية، أو يتعلق بـدين مـا، وليس بالألوهية مطلقا، أو أنه كان موضوع مـذهب أو كنيسـة، فإنه لا يـبرر الفـرار من القضية كلها.. وليس من هم أكثر من الشيوعيين حديثا عن الطبيعة وحركتها وقوانينها، ولكنهم يتجـاهلون باسـتمرار السـؤال الهـام: **ما هى الطبيعة.. هل هى الأجـرام السماوية من شموس وأقمار ومجرات.. وهل هى التى وضــعت قوانينها بنفسـها وألزمتها أن تـدور بهـذه الدقـة، فيكـون لها عقل وإرادة.. أو أن هنــــاك من وضع لها هــــذا.. وإذا لم يكن لها عقل ولم يكن وراءها من يسيرها فهل الصـدفة.. وكيف نقبل الصـدفة فى عـالم الحتميـات أو هل هو التطـور العشـوائى، وهل يمكن لهـذا التطـور العشـوائى أن يبــدع "الحياة" أو أن يصل إلى الأحكام والدقة فى الذرات والنجـوم والمجـرات بحيث تسير كلها تبعا لها من أصغر ذرة لا تبلغ إلا جزءا من ألف جــزء من المليجرام حتى أكبر المجرات التى تفصلنا عنها مئات، أو ألوف السنوات الضـوئية بل وفى الجسم الإنسـانى الـذى يكشف العلم يومـاً بعد يــوم إعجازه المذهل وأحكامه الدقيقة.**

إننا عندما نشهد صـورة متقنة لشـخص ما أو منظر طـبيعى لابد وان نسـتنتج أن رساما رسمها، ولا يخطر ببالنا أن "الطبيعة" قد رسـمتها، وإذا رأينا "سـيارة" فلا يمكن أن نتصور أن "الطبيعـة" جـاءت ببعض الحديد من المنـاجم والكاوتشـوك من الأشـجار والزجاج من الرمال وأخذت تعالج هـذا كله بـدأب واسـتمرار حـتى أخـرجت بعد ملايين السنين سيارة..

إن قصـارى ما يمكن أن يصل إليه تـوالى الملايين من السـنين، وهو رأس مـال أنصار التطور الذاتى. المادى هو تطوير كائن دنىء.. إلى كـائن ذكى كالإنسـان.. ولكنه لا يمكن أن يحل أمرين أولهما إحكـام القـوانين الـتى تمسك الأجـرام السـماوية وتبقى على هذا الكون والثانى سر الحيـاة. وإنما يمكن لملايين السـنين أن تحقق تطـورا كميا أو نوعيا لأن الكائن حى ولأن بذرة التغيير كامنة فيـه، ولأن الله تعـالى وضع النـواميس والقوانين لهذا التطور – فهى – أى تـوالى السـنين والأعـوام – عامل مسـاعد، وليست العامل الأصيل. وقد تستطيع ملايين السنين أن تغير من طبيعة بعض المواد من خشب أو معـادن فتوجد لنا الفحم والبـترول، ولكنها لا تملك وضع النـواميس الـتى تتحـرك بها الأجرام السماوية من شموس وأقمـار، كما لا تملك أن تضـفى حيـاة على من لا حيـاة فيه..

أن قضية الله هى أساسا قضية عقل – فإذا كان هناك عقل وإرادة فثم وجه الله – وهناك النواميس والضبط والالتزام والمقدمات والنتائج، ومن هنا فإن القرآن عندما يحاج المخالفين ويدعوهم إلى الإيمان فإنه يقرعهم "أفلا تعقلون".

وليس هناك ما يتفق مع العقل أكثر من الآية القرآنية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾.

ومن الخطأ أن نتصور أن الشعوب فى العصر الحديث فى أوروبا وأمريكا وغيرهما لا تؤمن بالله، وأن المسلمين وحدهم هم الذين يؤمنون بالله. إن شريحة كبيرة من هذه الشعوب تؤمن بالله بصورة قريبة جداً من الصورة الإسلامية التى هى أقرب إلى الفطرة. ولكن لما لم تكن تلك الصورة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدين (لأن صورة الله كما تقدمها الكنيسة المسيحية ليست محل الإيمان الحقيقى لدى أغلبية هذه الشعوب، إما لأنها لا تفهمها، وأما لأنها لا تتقبلها) فإنها فقدت جزءا كبيرا من فعاليتها وما تستتبعه من التزام أو ما توحى به من قيم وإن حال هذا الجزء من الإيمان دون أن تقع هذه الشعوب كلية فى الفراغ الذى لابد وأن يحدثه تجاهل فكرة الله أو اصطناع بدائل أقل بالطبع. ولا يرفض الصورة الفطرية لله فى العالم الغربى إلا المتعنتون الذين غلبهم العناد على أمرهم وجعلهم يصرون على باطلهم، ممن وصفهم الله ﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا﴾.

وفرار الماركسية من التصدى لقضية الألوهية باعتبارها الحل الوحيد المتسم بالعقلانية لمشكلة الوجود: وجود الكون بقوانينه ونظمه البالغة الغاية من الدقة، ووجود الإنسان بعواطفه ومشاعره، وما توفر له من حياة وذكاء وضمير، وتنديد الشيوعية بفكرة الله وإطراحها لفكرة الخلق وعدم تقديمها البديل المقنع.. يمس عمق وموضوعية كل المفكرين الشيوعيين من ماركس فنازلا – وتضعهم من زاوية الإسلام فى معسكر الذين يشترون الضلالة بالهدى ويؤثرون الذى هو أدنى على الذى هو خير. وتشمئز قلوبهم إذا ذكر الله وحده. وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ويقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

وعندما جحدت الاشتراكية وجود الله تعالى وأثر الدين على المجتمع والفرد، فإنها فقدت القيم، والخلق، وضحت بكل ما قدمته الفلسفة من مبادئ كانت هى التى أوجدت الضمير الأوربى ووقعت فى أسوء ما عابته على الرأسمالية من "كلبية" ومن اغتراب، فكما قال المسيح "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان". وليس من العجيب بعد هذا أن نجد الانتهازية هى قاعدة السلوك والتصرفات سواء صدرت عن أفراد أو عن الحزب أو عن الدولة.. وأن الاشتراكية على يدى لينين وستالين وماوتسي تونج والأحزاب الشيوعية التى قدر لها أن تحكم آسيا وأفريقيا، قد فرضت الإرهاب على شعوبها وتسببت فى هلاك ما يزيد عن مائة مليون إنسان. فأين هذا من الدين الذى يرى أن ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. إن قداسة الحياة وكرامة الإنسان ما لم يأتيا من الله، فإنهما قد لا يوجدا، وإذا وجدا فإنهما يتعرضان للانتقاص.

ثانيا: سحق شخصية الفرد:

كما تجاهلت الجدلية الماركسية "الله" بالنسبة لتسيير الطبيعة ووضع نواميسها، فإنها أيضا تناست الإنسان ودوره فى المجتمع، ونصيب الإرادة الإنسانية فى تسيير المجتمع وسحقت شخصية الفرد داخل الطبقة، ولا يمكن أن يوصف هذا الموقف إلا بأنه ردة، أو أنه بالتعبير الدارج "رجعية" تعود بالإنسان إلى أقدم العصور قبل أن

تستنقذه الأديان السماوية، وتجعل له "روحا" مقدسة، وضميراً واعيا، وشخصية مميزة، وقبل أن تظهر الثورة الفكرية التى رفعت لواء الحرية وحققتها بالفعل فى كثير من المجالات..

ففى هذه العصور القديمة اعتقد الإنسان أن الأمر سواء بالنسبة للكون والمجتمع إنما هو قضية الآلهة الغضاب أو قوى الطبيعة النزقة التى صورها له خياله، وإلى حد ما فى يد الحاكم الذى تقمصته هذه الآلهة، فهو وحده صاحب الأمر والنهى، وهو يملك حرية العمل.. وحق الحياة والموت وهو ينعم على من يشاء من بطانته والمقربين إليه فيتمتعون بفضل رضاه بقدر من الحرية والرخاء. أما بقية الناس فقد كانت شخصية كل منهم مطموسة داخل طبقته أو قبيلته، أو أنه يرتبط بعقدة الولاء للأمير أو النبيل..

وعندما ظهرت المسيحية استنقذت الإنسان من هذا الوضع. وأضفت عليه مسحة من الكرامة نتيجة لصلته بالله وبلورت الضمير والروح، وقدمت الكنيسة تصويراً للكون والمجتمع بدا منطقيا متسما بالاتزان والثبات المطلوبين لاستقرار الأمور، وإن لم يكن صحيحاً. فالإنسان هو سيد الأرض. والأرض هى مركز الثقل فى الكون، وحولها تدور الأفلاك، وهذا الكون كله يسير تبعا لإرادة الله الذى يكافئ المحسن ويعاقب السيئ ووضعت المسيحية معايير موضوعية تسرى على الجميع وتسمح لروح المساواة أن تتخلل هذا المجتمع. وعن هذا المضمون حاربت الكنيسة طوال القرون الوسطى الربا وأنواعا عديدة من البيوع الفاسدة وأوجبت التمسك بالسعر العادل، وفرضت رعاية الفقير على المجتمع، وحاولت أن تؤخر التطور المضاد، بل يمكن القول إنها أخرته بالفعل، فالثورة الصناعية التى حدثت فى القرن الثامن عشر كان يمكن أن تحدث قبل قرن أو إثنين عندما اكتشفت بالفعل القوى المحركة والآلات.. ولكن الحكومة حرمت استخدامها.

ولكن عدداً من العوامل تدخل وغير هذا المسار نتيجة لانفراد الكنيسة بالسلطة، وما أتخمت به من ثراء فبدأت تفسد وأصبح كبار رجالاتها من بابوات وأساقفة وكرادلة فى واد وشعبها وجمهورها من رهبان أو كهان أو مؤمنين فى واد آخر.. وابتعدت عن القيم التى قامت عليها أول مرة وأصبحت تعمل لحماية مصالحها متعاونة مع الملوك والأرستقراطيات ضد الشعوب والجماهير.

ومن ناحية أخرى، فإن المسيحية نتيجة تركيزها على الروح والخلاص والخطيئة.. ولعدد كبير من العوامل التاريخية الخاصة بنشأتها سمحت بظهور فكر مسيحى يرى أن المسيحية لا يجوز لها أن تتدخل فى شئون السياسة والاقتصاد وأن رسالتها الحقة. هى تخليص الروح بالبشارة والمحبة والدعوة والقدوة، وأن الكنيسة ليس لها أن تتدخل بين الإنسان والله أو أن تكون وصية على ضميره وإرادته وكان لهذه الاتجاهات أسانيدها من العوامل التى أشرنا إليها، ومن أقوال المسيح وقطبى المسيحية بول وبطرس بينما كانت قوى التطور الأخرى تظهر فكراً مسيحياً يمجد العمل والدأب ويدعو إلى التقشف وترى فى النجاح دليلاً على رضا الرب واستقامة الخلق. وكان هذا هو المناخ الذى سمح بظهور "الرأسمالى المتقشف" الذى يحقق نجاحه نتيجة لتراكم الربح وإعادة استثماره، ولم يكن مثل هذا الرأسمالى ليستمتع بالحياة أو يتذوق الترف إلا فى الفترات الأخيرة من عمره، وعادة ما يصطحب ذلك بعمل مسيحى كبناء كنيسة أو ملجأ أو مدرسة الخ... وخلال رحلة طويلة ومتشعبة سمحت هذه الأفكار بعودة الربا والتخلص من رعاية الفقير والتخلى عن الثمن العادل. بالاختصار تهيأ الجو لظهور الرأسمالية.

وكـانت الرأسـمالية قد بـدأت بداية متواضـعة فى مهد "البـورو" وبفضل روح المغامرة والمجازفة التى تملكت عددا من التجار فبدأت الاكتشـافات البحرية وما تلاها من استعمار وتجـارة ونهب وسـلب وبفضل هـذا كله تحقق للتجـار "تـراكم" رأسـمالى ضخم وتمكن الإنسان من تسخير قوى الطبيعة لتحقيق إرادته.

وهكـذا تهـاوى المجتمع المسـيحى القروسـطى تحت ضـربات القـوى المضـادة فاستقلت السياسة عن الدين واستقل الاقتصاد عن السياسة وتوجت المسيرة بظهـور الرأسمالية وحرية العمل. وظهرت – لأول مرة – شخصية الفرد مستقلة ومتحررة عن الكنيسة والدولة..

ولكن الرأسمالية أظهرت "الإنسان الاقتصـادى" وهو نمط فريد من الكائنـات أفـرزه الاقتصـاد السياسى للرأسـمالية، فلا يتحـرك إلا بـوازع الـربح ولا يتحـدث إلا بلغة الأرقـام ولا يهمه إلا أن يكسـب، وهو يـدخل معركة ضارية مع العمال. ومع المستهلكين، بل ومع زملائه المنافسين..

ونتيجة لهذا أصبح الرأسماليون نوعا من الآلهة الغضاب القدامى الذين يستبدون بالناس، فانطمست مرة أخرى شخصـية الفـرد فى الجماعة بصـورة متفاوتـة، ولما لم يستطع آحاد العمال الصمود أمام الاستغلال الرأسـمالى بـدءوا فى تـأليف النقابـات أو انضموا إلى الأحزاب.

كان هـذا هو الوضع عنـدما ظهر مـاركس، ولعله أراد أن يصـلح هـذا الوضع الأعور، ولكنه خلال معالجته أصاب العين السليمة، فأصبح أعمى ! وفى الـوقت الـذى أراد أن يحـرر الإنسـان من الاسـتغلال، فإنه هـوى به أسفل سافلين، أو أنه على حد تعبير "بيتر دركر" "لم يكتف بأن يثبت أن الإنسـان ليس حـرا فى ظل الرأسـمالية، بل إنه ليس لديه أصـلاً الملكة ليكون حراً".

ذلك أن ماركس عندما أخذ من "المادة" وليس الإنسـان نقطة البـدء، لم ير فى الإنسـان سـوى كيانه المـادى باعتبـاره حيوانـا، ودفعته أبحـاث النشـوء والتطـور الـتى ظهـرت وقتئـذ، وتـأثر بها عميقا لأن يـرى فى الإنسـان سـلبياً للقـردة العليا بفضل الظروف والملابسات وخلال مرحلة طويلة من التطور – اسـتطاع أن يقف على قدميه وأن يطور من يده – وبالذات الإبهام – بحيث اكتسب القدرة على الإمسـاك بالأشـياء – وأصبح عبر ملاين السنين الإنسان المعروف.

وهـذا المنطق يختلف اختلافا جـذريا عن منطلق الأديـان والفلسـفات الإنسـانية، فالأديان على اختلافها أضـفت على الإنسـان كرامة مقتبسة من ذات اللـه، ومن فكـرة خلق الله له، فهو فى الإسلام خليفة الله فى الأرض الـذى سـجدت له الملائكة ويحمل آثـار تلك النفثة الإلهية الـتى وهبت بـنى آدم الكرامـة، وهو فى المسـيحية على صـورة الإله الذى أرسل "ابنه" ليفديه. واعتبرت الكتب المقدسة ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وليس هناك ما هو أكثر من تلك الإشـارات والرموز دلالة على تكريم الإنسان.. وهو فى الفلسفات الإنسانية التى أظهرتها الثـورة الليبرالية للفكر الإنسـاني **"غاية فى ذاتـه" وبفضل هـذه المعـانى الـتى اصـطحبت بالأديـان، أصـبح للإنسـان قداسة خاصة وحقوقا طبيعية – أى بحكم كونه إنسانا ولمجرد كونه إنسانا..**

ومثل هذه الحقوق، وأنها طبيعية (أى لمجـرد كـون الإنسـان إنسـانا) غريبة على الشيوعية التى لا ترى فى الإنسان إلا حيوانا متطورا وأنه إذا كان يستحق مزايا معينـة، فإنما مرد ذلك للعوامل التى أدت إلى تطـويره، فهـذه العوامل وحـدها وليس الإنسـان وإرادته هى مركز الثقل، وهى التى تمضى دون نظر إلى طبيعة الإنسان وإرادته. وهذه

العوامل لا تقتصر على العوامل الطبيعيــة، ولكن أيضــاً وبالدرجة الأولى على العوامل الإنتاجية الـتى تتطـور وتنشئ علاقـات مسـتقلة تمامـاً عن إرادة الإنسـان طبقا لتلك الفقرة المشهورة من كلام ماركس "خلال الإنتاج الاجتماعى للناس، يـدخل النـاس فى علاقـات محـددة لا غـنى عنها ومسـتقلة عن إرادتهم علاقـات إنتاجية تتطـابق مع درجة محددة من تطور قـوى الإنتـاج الماديـة" فتطـور قـوى الإنتـاج وعلاقاته تفـرض نفسـها فرضا على الإرادة الإنسانية التى لا تستطيع شيئاً إزاءها.

وفى ضوء هذه الفكرة يمكن أن نفهم الجمود الـذى تملك مـاركس إزاء العمـال والرأسماليين معا. فمع تعاطفه مع الأولين، ونقمته على الآخرين، إلا أنه كـان يـرى أن هـؤلاء وأولئك ليسـوا المتسـببين فى البأسـاء، وأن الرأسـماليين لا يسـتطيعون ألا أن يمضوا إلى النهاية – نهايتهم نفسها – وأن العمال، ما لم يربطوا ما بين كفاحهم وتغيـير علاقات وملكية الإنتـاج، فلن يسـتطيعوا شـيئاً، كما نفهم الاسـتهانة بـالحقوق الإنسـانية الـتى تصـطحب بـالتطبيق الشـيوعى بـدءا من ليـنين حـتى الآن، وعلى اختلاف صـور التطـبيق فى مختلف دول العـالم، كما يمكن أن نفهم ظهـور فكـرة "تكـييف" الطبيعة البشرية ومحاولة الهيمنة على مكونات شخصية الفرد والعبث بها وهى ممارسة بــدأت من أيام لينين مع تجارب "بافلوف" على الكلاب. وكانت محل اهتمـام ليـنين وتمخضت عن عمليات "غسيل المخ" أيام ستالين..

وفى ضوء هذه الفكرة أيضاً يمكن أن نفهم النظرية الشـيوعية عن الحرية الـتى طالما هلل لها الماركسـيون، وكـان حريا بهم أن يسـتحوا منها وتتلخص فى أن الحرية هى <u>العلم بالضرورة.</u>

وقد شرح بليخانوف فى كتابه عن الفرد والتاريخ هذا الاكتشاف الذى اعتبره من ألمع الاكتشافات الفلسفية بأنه "ما إن يبدو الـوعى بفضل الحرية فى صـورة اسـتحالة العمل غير الذى يؤديه الإنسان بالفعل وعندما يكون هذا العمل أكـثر الأعمـال الممكنة أفضلية، فإن الضرورة تتشخص فى ذهن الإنسان بالحرية، والحرية بالضــرورة" وعندئذ "لا أكون حرا إلا بمعنى أنى لا أستطيع أن أفسد هذه الوحدة ما بين الحرية والضــرورة وأنى لا أستطيع أن أعارض الواحدة بالأخرى، وأن مثل هــذه النقص فى الحرية هو فى الوقت نفسه أكبر عرض لها".

وهكـذا فـإن الاكتشـاف العظيم يتمخض عن أن الحرية هى عـدم الحريــة! وأن العجز عن العمل خلاف ما أعمل بالفعل هو نفسه أكبر عرض للحرية!!.

وبناء على هذه النظرية فإن ستالين أدعى أن الدستور الذى وضـعه سـنة 1936 هو أكثر الدساتير ديمقراطيــة، كما يـدعى الشـيوعيون فى كل دولة يهيمنـون عليها أن نظـامهم – وليس النظم الديمقراطية الرأسـمالية – هو الـذى يتضـمن أعظم قـدر من الحرية !!.

ومن الواضح بالطبع أن نظرية العلم بالضرورة كتعريف للحرية هى معالجة سـيئة وغـير موصـلة، إن لم تكن محض تحايـل، صـحيح أن الضـرورة تكـون فى كثـير من الحـالات قيـدا على الحرية أو إطـارا مفروضا عليها بل وباعثا على تجاوزها ولكننا لا نعرف الأشياء بـالقيود عليها أو الأضـداد لهـا، فلا نقـول إن الأبيض هو الأسـود.. حـتى وإن كـان من المسـلم به أن وجـود الأسـود يـبرز من صـورة الأبيض، وتعريف الحرية بأنها العلم بالضــرورة خلط وتمــييع وتحايل لأن كلمة الضــرورة تقبل التأويل، وهى عملية لا ضابط لها، وكل يـوم يشـهد تفوقا للإنسـان على الضـرورة، فما كان ضرورة بالأمس أصبح فى قبضة اليد اليوم. والمفروض أن يذكر مثل هذا التعريف عندما يكون الحديث بصدد العلاقة بين الإنسـان والطبيعة وأن الضـرورة الـتى فرضـتها الطبيعة أثارت الحرية فى الإنسان حتى تغلب عليها، وحتى عندئذ فإنه لا يكـون تعريفـاً

وإنماً إبرازاً لقدرة الإنسان حتى على الضرورة، ويبدو أن الزج بهذا التعريف فى مجال العلاقات الاجتماعية إنما أريد به إبراز الدولة الاشتراكية كضرورة تستوعب الحرية، ولا يختلف الأمر إذا قيل إن المقصود هو علاقات الإنتاج وملكية وسائل الإنتاج، لأن هذه تكون فى يد الدولة، وفى جميع الحالات فإن الحرية من هذه المنطلقات كلها لا يكون لها معنى سوى الإذعان والانقياد.. وتبرير هيمنة الحكومة الشمولية..

ومقارنة هذا التعريف الشيوعى، بأقرب الصور إليه ألا وهو التصوير الإسلامى للقضاء والقدر[21] الذى تصوره "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا" أو "الخيرة فيما اختاره الله" أو "لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع" **يوضح لنا أن التعريف الشيوعى صورة مشوهة للتصور الإسلامى لأن المناط فى التصور الإسلامى هو فى يد الإله العادل القادر الرحمن الرحيم الذى هو رمز الكمال، ولا يملك أحد احتكار الحكم، باسمه فى حين أن "الضرورة" فى الشيوعية هى علاقات الإنتاج الصماء العمياء التى لا تملك – دون الإنسان – رؤية أو أن الضرورة فى مرحلة ما هى الدولة الشيوعية، ومأجوريها وزبانيتها، وقد وجد من المفكرين الإسلاميين من يرى أن الإنسان مخير لا مسير، بل ويلزم الله تعالى العدل.. وهو شىء لا يمكن أن يحلم به مفكر سوفيتى بالنسبة للدولة أو الحزب...**

ولكى تكون الصورة كاملة يجب أن نشير إلى أن "الحرية" كانت دائماً مثلاً أعلى أوروبيا، لأن الحضارة الأوروبية إنسانية، ووثنية يقف فيها الإنسان فى مواجهة القدر والقوى التى مثلتها الميثولوجيا اليونانية ويستهدف التحرر منها لا الاستسلام لها، ولما كانت أوروبا فى حضارتها الوثنية اليونانية والرومانية لا تعرف الديانات السماوية وتكييفها للحرية، ولما كانت الأديان عامة، والإسلام خاصة، تقوم على إيمان الناس بالحرية، ولما كان هذا الإيمان لا يمكن أن يتوفر إلا بالإرادة الطوعية والاقتناع الوجدانى، فإن الأديان تعتز بالفرد وتجعله اللبنة فى بناء المجتمع الإيمانى وتجعل القلب هو قلعة الإيمان وحصنه الحصين أى أنها تعترف تماماً بالفرد وشخصيته وحريته وكرامته.

ومما يتفق مع هذا أن القرآن الكريم فتح باب الاعتقاد على مصراعيه ووجه كل واحد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأقام عالم العلاقات بأسره على أساس العدل وحاول تحرير المجتمع من أسوأ وصمة فيه تشل الحرية وهى الرق وهذه الحريات كلها تتبع من الإيمان بالفرد والقلب والضمير، وفى هذه الحالات يختلف الإسلام اختلافاً تاماً مع الاشتراكية (الماركسية/ اللينينية) فى سحقها للفرد وقضائها على الحريات وإقامتها لديكتاتورية.

ثالثا: رفض الدولة الاشتراكية اللينينية:

ماذا نتوقع من نظرية جحدت الله تعالى وسحقت شخصية الفرد إذا قدر لها أن تصل إلى الحكم؟ فى كتابنا "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" أثبتنا أن السلطة التى هى الخصيصة المميزة التى لابد وأن تتوفر للدولة، فإذا لم تتوفر فيها فلا تعد دولة – تفسد العقيدة والأيدلوجيا والقيم فإذا مست السلطة قيمة من هذه القيم – لتكن مثلاً العدل أو الحرية أو المساواة الخ... فإنها لابد وأن تفسدها. وقد أفسدت السلطة أفضل القيم – الأديان نفسها – فعندما دخلت السلطة فى الخلافة حولتها إلى مُلك عضوض. وعندما أصبحت المسيحية وهى ديانة الحب والسماح – دولة تحولت

---

[21] **(21) أشار بليخانوف إلى تقارب فكرته مع فكرة القضاء والقدر الإسلامية، ولعلها الإشارة الوحيدة التى تنم عن معرفة بالفكر الإسلامى، حتى وإن كانت معرفة مغلوطة. واستشهاد فى غير محله.**

إلى محكمة تفتيش رهيبة. فإذا كانت السلطة تفسد كرائم القيم ويصل شـرها للأديـان نفسها، فما بالك إذا كـانت النظرية نفسـها فاسـدة ؟. لقد غـرس مـاركس بـذور الشر والفسـاد فى الاشـتراكية عنـدما جحد الله وعنـدما أقامها على مادية جدلية وعنـدما سـحقت شخصـية الفـرد فعنـدما تحـولت إلى دولة زادتها السـلطة خبـالاً، ونما ليـنين وتروتسكى وستالين البذور التى غرسها ماركس فأثمرت إرهابا، وديكتاتورية، وسـفكت أنهـاراً من الـدماء وأقـامت جبـالاً من المظـالم وفتحت أبـواب المعتقلات الـتى أدارت تعذيباً ونظمت سخرة تصغر أمامها سخرة الرومان..

وأسوأ شىء أن هذه الصـورة المقيتة من الحكم أصـبحت فى نظر الاشـتراكيين أسـرى ليـنين وسـتالين وعبـدة الأصـنام الحديثة هى الصـورة المثلى للدولة وسـعى أنصـارها الـذين أعمـاهم التعصب لتطبيقها فى الصـين والسـودان وكمبوديا وإندونيسيا الخ... فأضـيف ماوتسى تـونج، وهوشى منه وغـيرهم إلى الآلهة المزيفة المعبـودة من أتباعهم، وقتل وعذب الملايين.. ولا يقل ضـحايا اشـتراكية ليـنين واتباعه عن أربعين أو خمسين مليونا.

لن يغفر التاريخ للينيين أنه أهدر فرصة الدهر، عنـدما ولى الحكم باسم العمـال، وعندما أسلم العمـال إليه القيـادة واعتـبروه المنقذ من اسـتغلال الرأسـمالية وعبودية الأجور فحانت له اللحظة التى لم تحن لأى حاكم آخر **ليقيم حكماً اشتراكياً يتسم بالحرية ويوجد علاقـات عمل اشـتراكية تحل محل علاقـات العمل الـتى فرضـتها الرأسـمالية على العمـال.** ولكنه لم يحقق هـذا، ولم يقف فى منتصف الطريق كما تفعل الـديمقراطيات، ولكنه سـار إلى آخر درجة بلغتها الرأسـمالية من استغلال العمال وتمثلت فى "التيلورية" التى أبدعها المهندس الأمريكى فردريك تايلور للتوصل إلى الاسـتخدام الأمثل لكل حركة وسـكنة من العامل وفـرض على العمـال الطاعة العمياء لرؤساء العمل وضـرب الحركة النقابيـة، وهى التنظيم الأصـيل للعمـال واستلحقها بـالحزب واعتبرها مجـرد "السـير ناقل القـوى" من الحـزب إلى الجمـاهير، وعندما ظهرت "معارضة عمالية" بقيادة عناصر نابهة ومخلصة وعريقة فى الحزب ثـار لينين ثورة عارمة واتهمها بالسنديكالية والفوضـوية وأصـدر قـراراً بتحـريم أى معارضة لقرارات الحزب وأعطى سكرتير الحزب سـتالين سـلطات لا حد لها لقمعها[22]. وكـان اليد اليمـنى له هو تروتسـكى وزير الـدفاع الـذى هـدم قاعـدة كرونسـتاد البحرية على رؤوس بحارتها الـذين أطلقـوا الطلقة الأولى فى الثـورة، والـذى أبـدع طريقة أخذ الرهـائن، **وأراد "عسـكرة العمـل" وأن تصـبح النقابـات ثكنـات تطبق على العمال وسائل الضغط والربط العسكرية وأصدر كتاباً بعنوان "دفاعـاً عن الإرهاب" يبرر فيه حق الدولة فى ممارسة كل صور الإرهاب.**

إن الطغاة العسكريين، أمثال قيصر وأغسطس ونابليون الخ... مارسوا طغيانهم بـدعوى الحكم العسـكرى وما يقتضـيه من ضـبط وربـط. أما ليـنين وتروتسـكى فإنهما نظّرا قمع الحرية وأقاما هـذا القمع على أسس مبدئية بحيث لا يصـبح ضـرورة بغيضة ولكن فضيلة محبوبة ! أو جزءاً لا يتجزأ من عمل الدولة.

وإذا كانت الاشتراكية ترفض الفاشية والنازية وتندد بهمـا، فالحقيقة أن الفاشـية والنازية تعلمت فى مدرسة البلشفية وما هتلر وموسولينى إلا تلاميذ للينين وتروتسكى وقد سبق لينين العالم أجمع فى إقامة أعـتى جهـاز مخـابراتى ومنحه سـلطات مطلقة وسماه "درع الثورة".

---

[22] **(22) انظر تفصـيل هـذا فى كتابنا "المعارضة العمالية فى عهد ليـنين" دار الفكر الإسلامى.**

لا نبالغ إذا قلنا إن الفكر السياسى لم يتقهقر ويتخلف بل وينتكس مثلما حدث بظهور الدولة الاشتراكية التى وضع أصولها، ووسائلها وغاياتها لينين واتباعه، وأصبحت هذه الدولة هى لعنة العصر. وقد أهلكت الملايين بلا رحمة، وعذبت ملايين أخرى فى سجونها.. وقضت على ملايين ثالثة جوعاً وإرهاقا فى معسكرات السخرة.. وكان أول ضحاياها هم العمال..

لا جرم إذا كنا نرفض الدولة الاشتراكية اللينينية قلبا وقالبا. ونرى فيها نكسة للتقدم البشرى. وإذا كان لها من حسنة فهى أنها أثبتت بمنطق العمل أن أى محاولة لشراء العدالة وبيع الحرية هى صفقة خاسرة تفقد الحرية والعدالة معا. وأن الحرية حرية الفكر والرأى والتعبير يجب أن تكون حجر الأساس فى أى دولة تحترم الإنسان، وباطل أى دعوى أو تبرير للحجر عليها أو الانتقاص منها.

عوامل الاتفاق مع الاشتراكية..

كانت الاشتراكية عندما رفعت لواء "المادية " أمينة وصادقة مع واقع الجماهير وإحساسها. إن الأغلبية العظمى والساحقة من الناس إنما تعنى أول ما تعنى بظروف حياتها، وأكل عيشها. كما يقولون - وفى هذا السبيل يذهب الناس إلى أعمالهم، ويكدحون من الصباح حتى المساء. وعلى الآجر يتوقف مستوى المعيشة ودرجة الوفاء باحتياجات الغذاء والكساء والسكن، ومستوى الصحة والثقافة والحالة النفسية والبعد – أو القرب من هموم الحياة ومشكلاتها وهذا الشبح المخيف الفاقة والذل والسؤال والدين والشقاق والشجار.

وقد تجاهلت الديمقراطية السياسية هذا الجانب الهام - كما أغفلته الكنيسة - وكان هذا نقصا بالغا منهما، وقامت به الاشتراكية كدعوة، حتى وان لم تستطع أن تحققه فى الواقع العملى، أو أخطأها التوفيق فيه.

من هذا المنطلق نقول إن الاشتراكية عندما فضحت الرأسمالية وكشفت استغلالها ونددت به، وعندما نادت بحق العامل فى الثورة على هذا الاستغلال وقدمت أسلوباً لكبح جماحه. فإنها قدمت خدمة كبرى للقضية الجماهيرية ولقضية العدالة الاجتماعية، لأن من الأصول التى تتقبلها دعوة الإحياء أن الرأسمالية مستغلة بطبيعتها ولا شفاء لها من هذا الاستغلال، ولكن يمكن مقاومته وكبحه والوصول به إلى أقل درجة عن طريق تشجيع العمال على تكوين النقابات. وتعزيز هذه النقابات بالثقافة والعلم والتنظيم السليم.

إن أهمية العامل المادى لا يجوز أن تكون محل نكران أو تجاهل، وفكرة أن الناس يجب أن يأكلوا ويشربوا قبل أن يفكروا ويتفلسفوا فكرة مقبولة ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فالأمن من الجوع جاء أولاً ومبرراً للعبادة. وقد وضع الإسلام النظم لتيسيرها وإشباعها والحيلولة دون أن يحل الحرمان بالمسلمين، وكره أشد الكره الفاقة، والسؤال، والاستدانة – وأحب للناس أن يستمتعوا بها فمن الخطأ أن نعيب على الاشتراكية أنها اهتمت أولاً وقبل كل شئ بالجانب المادي، على العكس يجب أن نشكر لها ذلك، وأن نراه الترتيب الطبيعى بالنسبة للأغلبية العظمى والساحقة من الناس، بل نرى أن الأديان نفسها إنما نزلت لوجود هذه الحقيقة بالذات، ذلك أن الله تعالى الذى جبل النفس الإنسانية وعلم ضرورة إشباع احتياجاتها المادية، وأهميتها وأنها لازمة لبقاء الكيان العضوى والحيوى للإنسان.. أراد أن يستكمل للإنسان ذلك الجانب الآخر الذى يمثل إنسانية الإنسان من فكر أو قيم أو معنويات أو إيمان فأنزل الرسالات السماوية. أى أن نزول الرسالات السماوية يفترض ضمنا التأثير البالغ

للحاجـات الماديـة، وأنها تكـاد تسـتحوذ على النفس الإنسـانية وتسـتأثر بها لـولا نـزول الأديان. **فالقضية قضـية تكامـل.. وليست قضـية تعـارض، وما ظل إشـباع الحاجات المادية سليما فـإن الإسـلام ليس فحسب يقـره، بل أيضا يـثيب عليه.**

إن الله تعـالى خلق أدم من طين **"ثم"** نفخ فيـه. فالتشـكيل الطيـنى والـترابى الـذى يمثل جسم الإنسـان – وما يسـتتبعه من حاجـات مادية - كـان سـابقا على تلك النفثة الإلهية التى كفلت للإنسان المعنويات والقيم، كما أن نزول الرسالات السـماوية يفترض ضمنا وجود قصور فى الإنسان لا يمكن للإنسان نفسه أن يسـتدركه من تلقـاء نفسه.

هذه الناحية توضح لنا أن الإسلام يعترف بالجانب المـادى والجـانب الـروحى فى الإنسان على سواء. بينما تنكرت بعض المـذاهب الدينية للحاجـات الماديـة، ورأت فيها ضرورة بغيضة. وأغفلت الاشتراكية الجانب الروحى بل هاجمته زاعمة أن الدين أفيـون الشـعب. وكـان هـذا من أكـبر المآخذ ووجـوه النقص فى الماركسـية إذ كـان عليها أن تدرك أن العناية القصوى بالجانب المادى - وهو أمر حسن ونشكرها عليه – لا تسـتلزم أبداً أو بالضرورة تجاهل الجـانب الـروحى أو التنكر لـه. كما كـان عليها أيضا أن **تحلل طبيعة ومدى إشباع الحاجات المادية، وان الأهمية القصوى لهذا الإشـباع تقف عند درجة معينة تأخذ بعدها فى التناقص تبعا لقانون تناقص الغلـة.** وإذا تجوهل ذلك وسمح للإنسان بـأن يمض فى الإشـباع دون ضـابط - فمعـنى هـذا أن ينساق وراء إغراء الربح والمال والبذخ والترف - باختصار الطريق الرأسمالى وهو أمر لا يعد مقبــولا من الزاوية الاشـتراكية بالـذات قبل أى مـذهب آخر كما كـان يجب إن تلحظ أن الحاجـــــات المادية فردية بطبيعتها وأن القيم و المعنويـــــات جماعية مبدأيه بطبيعتها وان المجتمع لا يقوم أو يتماسك أو يتقـدم إلا بفضل القيم والمبـادئ وقد أدى تجاهل الماركسـية لـذلك إلى غلبة الطـابع اللاأخلاقى عليها الـذى يظهر فى سياسـتها الغادرة بجماهيرها وحلفائها وأفسح المجال لظهور السـوءة العظمى: الديكتاتورية وأى محاولة للمقارنة بين أهمية الجـانب المـادى والجـانب الـروحى فى الإنسـان لابد وان تكون محاولة عشوائية ظالمـة، وأى تفاضل بينهما أو لمنزلة الواحد من الآخر لا يكــون تفاضلاً حقيقيا أو دقيقا، وينطبق هذا على التصوير الاشـتراكى الكلاسـيكى الـذى يجعل للقيم والمعنويـات دورا علويا فـوق البنـاء الأساسى - لأنه تشـبيه سـكونى "سـتاتيكى" جامد ويوحى بالاستقلال ما بين الدور العلوى والدور الأساسى بينما التماسك والتفاعل والتلاحم بينهما دائم ومستمر.

ومع هـذا فقد يمكن القـول إن الحاجـات المادية أقـرب وأسـرع وأكـثر مباشـرة فالإنسان - ككـائن حيـوى - لابد له أولا وقبل أى شـىء آخر أن يتنفس - وان يأكل وأن يقى نفسه لـذع الحر والـبرد. وغـير ذلك من الحاجـات الماديـة، وما لم تكفل له هـذه الحاجات، فإنه لا يستطيع بـالطبع أن يسـتمتع بفن أو جمـال. كما يغلب أيضا أن يسـوء طبعه، وتنحط نفسيته، وتتحكم فيه خلائق الشر والعدوان أو الذل والنفاق.

وفى الوقت نفسه – فمن العسـير أن نتصـور مجتمعا يتـوفر لأفـراده الإحسـاس الـدينى القـوى والمشـاعر الروحية والمعنوية مع الحرمـان من الحاجـات الماديـة. إن الصراع الرهيب عـادة ما يتمخض بالنسـبة للجمـاهير والسـواد الأعظم من النـاس عن انتصار الحاجيات المادية التى هى أكثر مباشـرة ومساسا من المشـاعر الروحية "على الأقل بالنسبة لأغلبية الناس". وقد خطا الإسلام خطوة عملية للحيلولة دون ذلك عندما فرض الزكاة كأداة للتكافل الاقتصادى وجعل العدل طابعه. لأن العــدل وإن لم يكفل – بالضرورة – الكفاية المادية إلا أنه يحول دون استشـعار أسـوأ الأحاسـيس الـتى يثيرها الحرمان، لأن الفرد سيرى أنه ليس المحروم الوحيـد، وفى الـوقت نفسه فـإن العـدل

سيحول دون أسوأ صـور الحاجة والحرمـان لأنه سـيكفل حسن التوزيع وسيقضى على وجـود الغـنى الفـاحش جنبا إلى جنب الفاقة المدقعـة. وعلى هـذا، فـان الحـديث عن الـروح أو القيم مع وجـود الحرمـان والفاقة أمر لا يتسق أو يتلاءم، لأنه ينم عن فسـاد فى النظام، ويعسر مطالبة الناس بالرضوخ له والرضا به.

ولا جــدال فى أهمية هــذا العامل وضــرورته ولكنه مع ذلك ليس العامل الوحيد الذى يملأ النفس البشـرية، إنه يملأ المعـدة، ويمكن أيضـاً أن يـؤثر على الفكـر، ولكن هناك مناطق من الفكر لا يمكن أن يؤثر عليها إلا المبـدأ الـذى لا علاقة له بالمـادة، بل قد يغلب أن يكون على حساب المادة، لأنه يكلف أصحابه التضحية بأنفسهم فيضـحون بها ويتحملون الشـظف والسـجن والعـذاب فى سـبيله. وقد كـان مـاركس نفسه دليلاً على ذلك، فقد تحمل الجوع والشـظف فى سـبيل الفكـرة الـتى آمن بهـا، وكـانت ضد اتجاهات القوى المهيمنة..

من ناحية أخرى، فـإن العامل المـادى وإن كـان يمثل الأولوية لـدى الجماعـات والجمـاهير والأغلبية السـاحقة من النـاس، إلا أنه يفقد هـذه الأولوية لدى عدد من الناس قد يكـون قليلاً، ولكنه يمثل العنصر المـؤثر، فلدى هؤلاء تكون للفكرة، والعقيدة، والمذهب الأولوية وهذه القلة تضم معظم الفلاسفة والأنبياء والعلماء والشعراء والكتاب والفنانين العظام.. أى العناصر المؤثرة فى المجتمع، والـتى تقـود حركته تحت لـواء العقائد والأفكـار.. وبقيـادة هـذه القلة وتحت لـواء أفكارها تحـركت الجمـاهير ونظمت مسيراتها.. وليس شـرطا أن تكـون الأفكـار والعقائد صـحيحة أو سليمة، فقد تكون خاطئة أو بدائية، ولكنها فى جميع الحـالات بعيـدة عن معيار المادة وميزان الكسب والخسارة.

إن هذه التفرقة بين العامل المـادى وأثـره على الأقلية النابهـة، يضع الأمـور فى نصـــابها ويعطى كل ذى حق حقه ويجمع بين أهمية العامل المــــادى وأهمية العقائد والأفكـار دون تنـاقض أو تعـارض، فتحت لـواء الأفكـار قطعت البشـرية مسـيرتها نحو التقـدم، وفى الـوقت نفسه فـإن قـوى وعلاقـات الإنتـاج والحاجـات المادية للجمـاهير تضغط على هذه المسيرة وتؤثر عليها، وتجعل طريق التقدم يسـير نحو تحقيق الرخـاء للجماهير وإشباع احتياجاتها المادية..

وقد اضطر انجلز فى خطابه إلى شميدث (5 أغسـطس 1890) لأن يعـترف أنه هو وماركس يسـتحقان اللـوم لما ذهب إليه أتباعهما من الشـطط أو الظن أن العامل المادى وحده هو المؤثر، واعتذر بضيق الوقت، والملابسات والمنـاخ الـذى كـان سـائدا وقتئذ، ولكنه اعتذار هزيل لا يقوى على مس الصرح الـذى أقامـاه بالفعل وأصـبح قبلة الأتباع والمهووسين..

وبعد هذا، فإن العامل المادى حتى وإن احتل الأولوية لدى الجماهير إلا أنه يعجز عن الاحتفاظ بهذه الأولوية، إن أثره يقل تدريجيا بقدر التوصل إلى درجة الإشـباع، فهو يقضى بنفسه على نفسه ويضع بنفسه النقطة الـتى يبـدأ فيها التنـاقض. ولعل هـذا هو السبب فى نجاح الشيوعية فى الدول الفقيرة فعندما تلوح الشيوعية برغيفها المقدس فإن الجياع فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يجرون وراءها. ولكن رغيفها المقـدس لا يحرك ساكنا لدى الشعوب الغنية، لأنها تزهد فيه، ولابد لإثارة شـهيتها من تقـديم ما هو أفضل.. فإذا كانت قد بلغت هذا أيضاً فإن الشيوعية لن تجد ما تقدمه.

قد يقال إن الشيوعية عنـدما تـدعو إلى الرغيف وتتجه للجيـاع فإنها تحقق شـيئاً عظيمـاً. والـدعوى بهـذه الصـورة ليست محل خلاف ونحن أول من يـدعو إليهـا. وإنما الخلاف هو فى أن هذا الرغيف هو كل شىء.. والخلاف أيضا أن هذا الرغيف – باعتباره ممثلاً للحاجات المادية – لا يتحقق تماما فى كثير من الدول الشــيوعية.. وأن الحكومة

مع هذا تقتضى ثمنا ربويا فاحشا للكسرة التى تقدمها منه. وأن الجماهير فى كثـير من الحالات لم تنل الرغيف – وفقدت – فى الوقت نفسه – الحرية.

وليس فى التركيز على العامل المادى. أو التقليل من العامل الفكرى والمعنوى ما يحمل الإنسان على الزهو! فالحيوانات لا تعرف إلا العامل المادى والمـيزة العظمى للإنســان هى إدراكه للقيم والمثــل، وفكــرة الســمو الــتى تلهمه وتجعله يتمتع بحيــاة إنسانية بمعنى الكلمة.

* * *

من الأفكار التى جـاءت بها الاشـتراكية التخطيط والتـأميم ويقصد بـالأول تنظيم الاقتصاد والإنتاج حتى لا يحدث ما تسمح به الرأسمالية الطليقة من فوضى، وتضــارب. وإهدار. وهى أمور ملموسة ولم تنجح آليـات السـوق فى كبحها ويقصد بالثـانى انـتزاع ملكية وسائل الإنتاج (أى المصانع والأراضى الخ...) من الأفراد حتى لا يجعلوها وســيلة لاستغلال الشعب من عمال وفلاحين.

وقد طبق الاتحـــاد الســـوفيتى التخطيط فجعله مركزيا كما نفذ التـــأميم بأشد الطـــرق عنفا وبطشـــا، فلم يكتف بتجريد الرأســـماليين والملاك من ثـــرواتهم، بل استأصـلهم أنفسـهم، وأظهـرت التجربة فشـلاً كـان من أكـبر أسـباب تهـاوى الاتحـاد السوفيتى وتحلله، فلا يمكن أبداً إدارة الاقتصاد بتخطيط مركـزى فهـذا لا يعـنى سـوى نقل بيروقراطية الحكومة إلى الاقتصـــاد بكل ما تتسم به من بطء، وتعقيـــد، وتعـــدد وشيوع المسئولية، بالإضافة إلى فقد وازع الربح وهو أكبر دافع لحيوية الاقتصـاد وأصل عامل على بقائه ومقاومته لكل العقبــات وكــذلك انتفــاء المنافسة الــتى هى معيــار الكفاءة والنجاح. والاقتصاد فى الدول الرأسمالية أشبه بحصان سـباق وهو فى الاتحـاد السوفيتى سلحفاة بطيئة.

أما التأميم، فمن المحتمل أن كان وراء تطبيقه بتلك الشـدة والقسـوة، وتصـفية الرأســماليين والملاك أنفســهم ما هو أكـثر من الحيلولة دون الاســتغلال، ولعله العمل على تفريد الدولة بملكية وســائل الإنتــاج والقضــاء على أى عنصر يمكن أن يكــون له اســتقلال أو يحــول دون ذلك أو يعرقلــه، وأصــبح هــذا التــأميم فى حقيقته "تدولــة" وأصبحت الاشـتراكية رأسـمالية دولة رغم كل الشـعارات والشـارات الاشـتراكية وفى غياب الحريات والشفافية السياسية فإن هـذا النظـام يجمع ما بين سـوءات الاسـتغلال الاقتصادى والاسـتبداد السياسى ويجعل الدولة الـتى ترفع راية الاشـتراكية أعـتى دولة رأسمالية فى العالم وأبعدها عن الحرية والعدالة.

ولا جدال فى أن الإسلام فى هذه النقطة يفضل الاشتراكية لأنه يســمح بالملكية سواء كانت إنتاجية أو استهلاكية فهذا هو حق الإنسان النشيط الذكى الذى يتفــانى فى العمل ويحقق طموحه للمزيد من التقدم ويعطيه هذا قوة واستقلالاً. وهذه كلها فضائل ومزايا يجب أن تكــون محل تشـجيع أى نظـام للحكم ولكن دون أن يتطـرق هـذا إلى استغلال فئات من الشعب كالعمال أو المستهلكين أو أن يكون على حسابهم ودون أن يؤدى إلى إهدار الموارد أو السماح بالتجاوزات التى تدفع إليها المنافسة والحرص على الربح وتجيزها الرأسمالية المنطلقة على غاربها. ولكن الخوف من هذه المحاذير، وهى محاذير قوية، يجب أن لا يدفعنا للقضـاء على الملكيـة، فنقع فيما هو أسـوأ منها فليس الخصـاء هو الحل الأمثل لمعالجة الغريـزة الجنسـية، ويجب أن يكـون لـدينا الشـجاعة لتقبل مواجهة ما تفرضه الضـــرورات من تعقيد وتشـــابك، وفى الـــوقت نفسه نعمل للهبــوط بآثارها إلى الدرجة الــدنيا، وهــذا ما يحققه الإســلام بــأن يــوجب نوعا من **"التوجيه" لسياسة الاقتصاد القومى بحيث تحقق مصلحة الشـعب جميعـاً وما قد يخسره الرأسمالى بحكم العدل يكسـبه بعـدم إهـدار المـوارد فى منافسة قاتلة** – فضـــلاً عن أنه فى دولة إســـلامية لابد أن يكـــون للقيم والالـــتزام بالمسئولية العامة حساب وتقدير ينبثق عن الإيمان الطوعى الذى تعززه القوانين أيضاً

وهــذا ما ينتفى فى الرأســمالية والاشــتراكية فكل منهما لا خلاق لــه، لأنه ينبثق عن أساس واحد هو العامل المادى.

وتقـوم مشـروعية هـذه الضـوابط على أصـلين: الأول أن الملكية فى الإسـلام استخلاف فالمال أصـلاً هو مـال اللـه، وليس هـذا كلامـاً أجـوف لأن الإنسـان لم يوجد الأرض ولا أودع فى جوفها المعادن ولا أعطاها ملكة تنمية النبات. فهذه كلها مما خلقه الله ومما أوكل إلى الإنسان استخدامه واستغلاله فيما يرضى الله ويتفق مع توجيهاتـه، وثانيـا: أن من المبـادئ الرئيسـية فى الإسـلام أن **إسـاءة اسـتغلال الحـق، تجـرد صاحبه منه** لهـذا فـإن الدولة لها حق أصـولى فى توجيه الاقتصـاد بما يوجبه الإيمـان بالعلم والالتزام بالمستويات وملاحظة المصـلحة القومية العامة دون أن ينفى هـذا. أن المبدأ الأصلى هو الحرية والملكية.

ويمكن للدولة أن تدخل مجـالات اسـتثمار يعـزف الرأسـماليون عن دخولها أو أن تقدم إعانات لاستحثاثهم، ولكنها لا تتولى أبداً إدارة الأعمال والمنشآت الاقتصـادية لأن الجهاز الحكومى غير مهيأ لهذه المهمة.. ودخوله لا يعـنى إلا الفشل والخسـارة وهى لا تفكر فى التأميم الذى يجعل الناس عالة وتبعا للدولة – والذى إذا نجح جعل الدولة إلها يحـيى ويميت ويعطى النـاس أو يمنعهم ويتحكم فى السـكن والعمل والـرزق.. وليس هذا كله من المصلحة فى شىء **ففشل التأميم خسارة ونجاحه نكبة...**

خاتمـــة:

البديـــــــل

من الاسـتعراض السـابق لكل من الاشـتراكية، والقومية والعلمانيـة، ظهر لنا أن لكل منها وجوه نقص، وإن كـان فى كل منها بـالطبع جانبـاً من الحقيقـة. فلا يمكن أن تعد صفوا خالصاً لا شـائبة فيه يجـوز لنا أن نأخذ به ونحن راضـيين، ومطمئـنين. فضـلاً عن أن نتحمس له كما يفعل البعض.

وهناك ناحية أخرى لها دلالة عميقة. تلك هى أن هذه النظم الثلاثة كلها إنما تعبر عن تطور المجتمع الأوربى. فقد نشأت فى التربة الأوربية ثم ترعرعت، وتطـورت فيها وكـانت رد فعل لما أعتـور المجتمع الأوربى من أوضـاع وأحـداث، اجتماعية وحضـارية حدثت خلال القرون الأربعة الأخيرة فى أوربا مما لا يمكن أن ينقل نقلاً حرفيا من هـذا المجتمع إلى مجتمع آخر يختلف عنه فى كل شـىء. إن ذلك يشـبه غـرس مـادة غريبة فى جسم إنســـان. إن الجسد يلفظها ويرفضـــها ولا يتعامل معهـــا. فـــإذا قيل إن المجتمعات تتشابه من ناحية أنها كلها مجتمعـات إنسـانية، وأن التطـور يجمعها وأن ما حدث لأوربا منذ أربعة أو خمسة قرون يحدث لنا الآن نقـول إن هـذا كلام لا يؤخذ على علاته. فعوامل التمييز أكبر من عوامل التجميـع. وقد نلحظها فى أخـوين شـقيقين فما بالك فى مجتمعين مختلفين فى كل شـــىء، المنـــاخ، والتـــاريخ، العـــادات والتقاليد والرواسب الحضارية؟. إن هذا العامل وحده كفيل بأن يقفنا عندما نفكر فى الأخذ بـأى واحد منها. فليست النظم قطع أحجـار تنقـل، ولا هى أزيـاء تلبس، إنها جـزء من جسم المجتمع وروحه وتاريخه وحضارته وليس التعقيد فيها بأقل من التعقيد الـذى يتم – وإن لم يحس به أحد – فى فعالية الجسم الإنسـانى وعمل الأعضـاء وتفاعلها بعضـها ببعض فى انسجام وتلاق..

إن هــذا هو ما يجعلنا نتوقف عن الأخذ بــأى منهــا، ويجعل موقفنا الأمثل هو أن نستوعب بعض دروسها التى تتلاءم معنا، ونعكف عليها لتمصيرها أو تعريبها حتى يمكن أن نهضمها وتصبح جزءً من "المطبخ" العربى والمائدة العربية.

إن موقف العزوف من هذه النظم، الذى لا يحول دون الإفادة منهـا، هو الموقف نفسه من الديمقراطية الـتى لم نعـرض لها فى هذ1 الكتـاب، والــذى يمكن أن تـذكر كبديل. ولا جدال فى أن الديمقراطية أفضل من النظم الثلاثة التى عرضنا لهـا. بل إنها أفضل ما على السـاحة الآن.. ولكنها أيضـاً ذات أصل أوربى عريق بـدأ مع ظهـور أثينا قبل الميلاد بخمسة قرون، ومع أنها الأفضل – فإن ثغرات عديدة تخترقها وتفسد عليها أمرها. وأفضليتها هى أفضلية نسبية، أى بالنسبة إلى الديكتاتورية أو الشـيوعية، ولكنها ليست الأفضلية الموضوعية أو المطلقة، ولم يكن لدى أوربا (وأمريكـا) خيـار سـواها.. لأنها تمثل النهاية للتطور فيها أما نحن فليس لدينا هذا الإضـطرار، لا من ناحية التطـور ولا من ناحية الأفضـلية خاصة وأن لـدينا إذا أعملنا الـذهن وإذا بـذلنا الجهد – البـديل الأفضل موضــوعيا، والــذى يمكن أن يعد نهاية لسلســلة التطــور الخاصة بــالمجتمع المصرى والعربى.

ما هو هذا البديل؟ إنه الإسلام، ليس فحسب كدين، ولكن بالأكثر كحضارة.

أما الصلة الوثيقة للإسلام بهذه المنطقة من الأرض فنحن لا نخــالف الحقيقة إذا قلنا إنه يعود إلى ما قبل الإسلام نفسه من ناحية أن هذه البلاد ومنذ ظهورها التـاريخى – أى منذ خمسة أو ستة آلاف سنة وهى ذات طبيعة إيمانيـة: يشـغل الـدين فيها صـفة

المحور أو الأساس، ويكون هو الأصل في التشريع و السياسة والضمير والخلق، كان كذلك فى مصر الفرعونية وكان هو شأنها أيضاً لحقبة محدودة مع المسيحية حتى جاءها الإسلام فآوت إليه وأوى إليها ورضيها ورضيته وتحت أعلامه كسبت انتصاراتها التاريخية التى كانت فى حقيقتها إنقاذاً للبشرية من الصليبين الجهلة إلى التتار المخربين ولأكثر من ألف عام والإسلام هو محور هذه البلاد تاريخياً وتشريعياً وحضارياً ودينياً، وصنع لها ثقاتها، وعاداتها وتقاليدها، وامتزج بها وامتزجت بـه، وأصبحت العلاقة عضوية وحضارية وضاربة فى أعماق تاريخ ومجتمع هذه البلاد.

أما من الناحية الموضوعية، فإن الأديان أغنى وأثرى من أى فكر إنسانى فهو تبدأ حيث تنتهى الفلسفة وهى تقدم فلسفة للحياة الدنيا تعود إلى وجود حياة أخرى وتعيد الأسباب إلى سببها الأعظم الله تعالى وهى تعالج الفرد والمجتمع – الروح والمادة ولها طابعها المثالى الذى يعترف بالمادية، ويجعل لها موضعا وطعما مميزا لأنه يضعها فى "الخير" فانتفى الجانب السيئ لها.. ولأنه يتيح للمجتمع أن يجمع ما بين الفرد والشمولية على نحو فريد لا يتأتى للنظم الشمولية، لأنه يقوم على رابطة الإيمان التطوعى النفسى والداخلى وليس على الالتزام القسرى الخارجى..

إن شعار "الإسلام هو الحل" رغم أنه يبدو فجاً، فاقعاً، فإنه فى الحقيقة يمثل البديل وقد صدر من أعمق أعماق النفس المصرية. وليس من شأن الشعارات بالطبع أن تقدم تفاصيل، ولكنه كشعار يقدم الحل..

إن القضية كلها هى فهم الإسلام – فإذا فهم فهما سليما، كالذى فهمه الصحابة فيمكن أن يحقق اليوم ثورة مثل التى حققها عندما ظهر أول مرة.. وإذا فهمناه فهما سقيماً – كما هو اليوم – فإنه يكون من أكبر عوامل انحطاطنا. **فالقضية هى الفهم السليم للإسلام**.

وقد أمضينا خمسين عاماً لإيضاح وشرح الفهم السليم للإسلام منذ أن أصدرنا كتاب "ديمقراطية جديدة" سنة 1946 متضمنا فصلاً بعنوان "فهم جديد للدين" ولا نزال حتى الآن نعمل فى هذا الميدان، وبدأنا دعوة الإحياء الإسلامى لتحمل لواءه، ومن ثم فلا يتيسر فى هذه الخاتمة تفصيل[23]. ويكفى فحسب أن نقول إنه الإسلام المستلهم من القرآن عندما يفسر القرآن نفسه – أى دون التزام بتفسير المفسرين وتطبيق للسُنة عندما تلتزم السُنة بضوابط القرآن، والاستهداء بالحكمة – أى العقل – التى جعلها الله تعالى قرينة للكتاب عندما قال ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾. وهذا التكييف يكسبنا عناصر القوة والأصالة والإبداع فى الثقافات والحضارات وما تقدمه المعرفة قدر ما يبعدنا عن الفهم الضيق الآحادى السقيم الذى جاء به الفقهاء، وكان ثمرة اجتهادهم وابن عصرهم، وكان عصرهم عصر انغلاق واستبداد، فجاءت أحكامهم حاملة آثار هذين وكانت من أكبر أسباب تخلف المجتمع الإسلامى وإهماله لمقتضيات الحياة وإغفاله مشاعر وحقوق الجماهير.

فإذا خلصنا منه، وإذا عدنا إلى المنبع الصافى المتدفق المنفتح والذى تصب فيه كل روافد الحكمة من ثقافات ومعارف فإننا نجد البديل..

وهذا الفهم الجديد يربط ما بين الإسلام وحضارة العصر، وما بين الإسلام والجماهير والجماعات التى تخرجها النظم السلطوية والمادية من حسابها بحيث يكفل لها الإسلام الأمن من الخوف والشبع من الجوع ويضمن الكرامة الأدبية لهم والخدمات المادية التى تتطلبها الحياة الكريمة

23 **(23) سيقدم هذا التفصيل فى كتابنا المقبل "تحديات العصر تحاصر الإسلام".**

ومســـتوى المعيشة الـــذى يكفله التوزيع العـــادل للثروات.

ولا يخالجنا شك فى أن هـذا الحل الـذى يرتكز على دعــام معنــوى وعلى كفاية ماديــة، ويجمع ما بين القيم والجماهير هو البديل الأفضل.